رواية

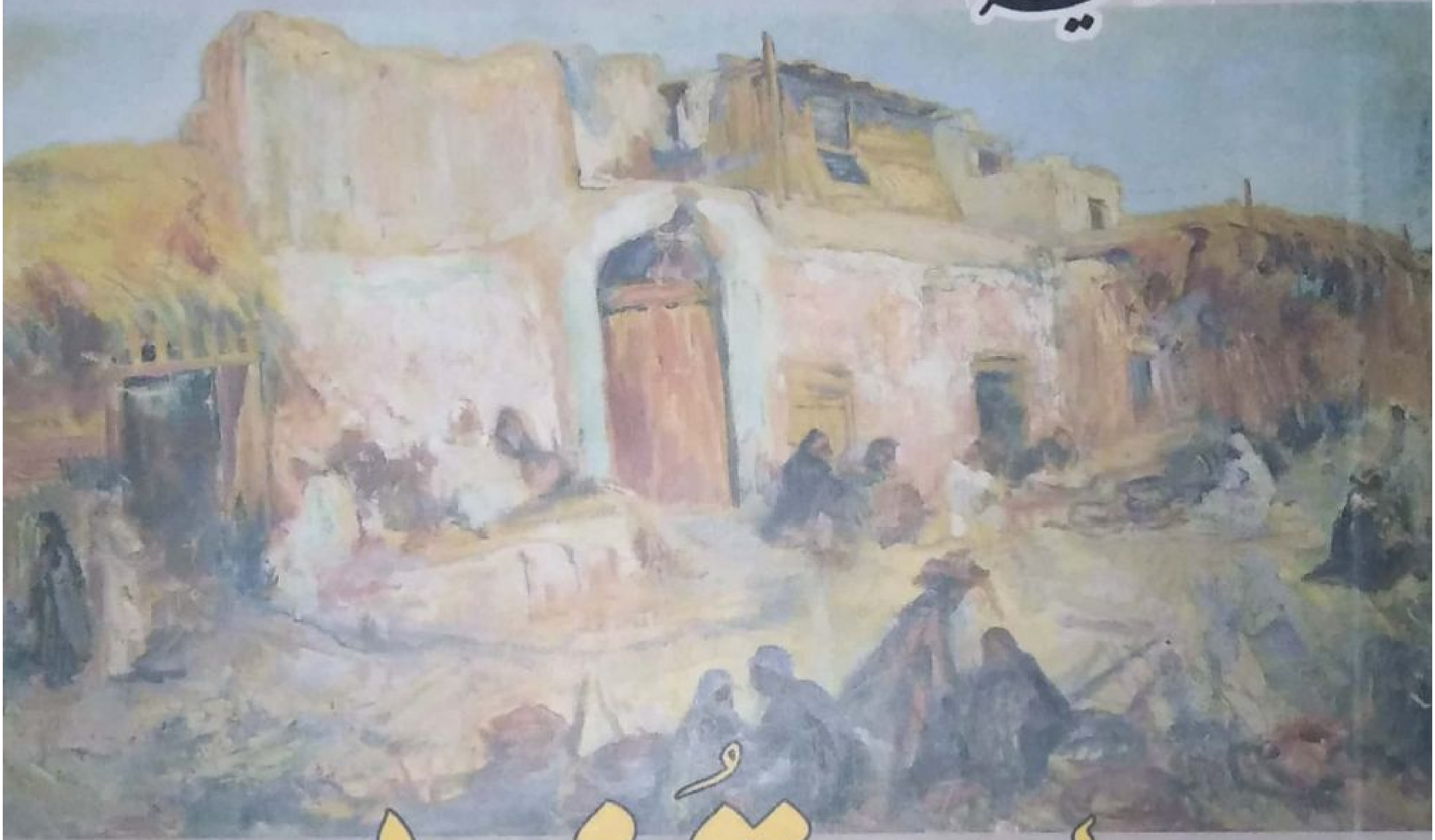

أيام لا تُنسى

كمال رُحيِّم

دار العين للنشر

أيام لا تُنسى

أيام لا تُنسى

رواية

كمال زحيم

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: هبة حلمي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣١٤٥ /٢٠١٨
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 512 - 4

أيام لا تُنسى

روايـة

كمال رُحيَّم

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

رحيم، كمال

أيام لا تنسى: رواية/ كمال رحيم.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٨

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٥١٢ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٠١٨/١٣١٤٥

إلى زوجتي الراحلة..

زهرة الماضي وطيف الحاضر..

كنتِ الأم والأخت والحبيبة، وبرحيلكِ فقدتُ كل هؤلاء..

ولا يُنبيك عن خُلُقِ الليالي.. كمن فقد الأحبَّةَ والصحَّابا

أحمد شوقي

1

صورة الجد..

صورة من الزمن القديم، زمن الطربوش وساعة الجيب..

الصورة وصندوق صغير من الخشب، هما التذكار الوحيد الذي تبقى لي من هذا الزمن. لازماني أغلب حياتي، وتنقلا معي من مكان إلى مكان حتى استقرا بالمسكن الذي أعيش فيه الآن، الصورة على جدار بغرفة الجلوس والصندوق محفوظ بدولاب غرفة النوم.

الصندوق يخص الجد..

لم يبارح غرفته، ولا أحد منا كان يعرف ما الذي فيه، انتقل بعدها إلى أبي ثم إليَّ. الصورة وبكل أسف هي التي حصلت عليها

بطريق غير مشروع، فيوم أن مات الجد، دهمني إحساس بأني أحق بها من كل هؤلاء الذين يبكون عليه، سيتذكرونه شهرًا، شهرين، وإن بالغنا نقول سنة، أما أنا فسوف يبقى معي إلى أن أموت. وفى لحظة انفعال تسللت وأنزلتها من فوق الحائط الذي كانت معلقة عليه، ولففتها بجلباب قديم ثم خبأتها في مكان لا يخطر على بال أحد، وفى أول فرصة هربتها إلى شقة (الغورية) التي كنت أعيش بها في ذلك الوقت.

لم ينتبهوا لضياع الصورة، إلا بعد أن فرغوا من عزاء الجد..

وهي دقائق وتحول البيت إلى ساحة تحقيق، شاطت النار في أمي خاصة، عصبية وانفعال ونظرات شك تطال الجميع، كما لو أن الصورة مسألة حياة أو موت بالنسبة لها! ولأنها أمي عرفتُ على الفور ما الذي يدور في رأسها، فبعد موت الجد دخلنا مرحلة جديدة، مرحلة كل شيء فيها سيكون في حوزة أبي، فثقافتنا آنذاك كانت تقول: إنه الكبير بعد الجد والكلمة كلمته، حتى مصائرنا نفسها يجب أن تكون في يده. ويبدو أن أمي تصورت أن أحدًا يخطط لإفشال أبي، وأول شيء بدأ به هو الصورة! فإن لم يكن قادرًا على الحفاظ على صورة أبيه، أو ضبط الفاعل على الأقل، فما المتوقع منه؟ هل هو قادر على إدارة بيت طويل عريض مثل بيتنا!

مسكينة أمي، فهذه كانت أفكارها..

***

وبدأ البحث..

شكَّلتْ فريقًا من نسوة البيت، وصالت وجالت في كل المطارح. الدواليب، أسفل الكنب، حتى غرفة الخزين دخلتها وفتشت بين أجولة الدقيق وقدور الجبن والبيض والعسل، وغرفة أخرى كانوا يشونون بها شادوفًا قديمًا ورأس محراث، لعل عديم الضمير الذي فعل هذه الفعلة قد خبأها هناك.

شربن المُرَّ، وكلما استبد بهن التعب كُنَّ يُشِحْن في وجوه بعضهن البعض، ويقلن:

- يا حول اللـه، يعني خطفها عفريت!

مست البيت شرارة كهرباء في هذا اليوم، بحث وتدقيق وزعيق وحركة، كنا تقريبًا في حالة طوارئ أشبه بالطوارئ والأحكام العرفية التي تفرضها الحكومات، وإذا تصادف ودقت بابنا واحدة من الجيران، كنا نتهرب منها أو نتحجج بأعذار كاذبة، كي لا تدخل وتعرف بالذي يدور. الصبايا الصغار كان ينطلي عليهن كلامنا وينصرفن بسهولة، النسوة المحنكات والعجائز منهن بالذات لم يكن يقتنعن، وكلمة من الشرق وأخرى من الغرب، طمعًا في غلطة نغلطها أو زلة لسان تكشف لُهَّن سر الارتباك الذي كنا فيه.

كما اتخذنا كافة الاحتياطات..

جمعنا الخادمات ونبهنا عليهن بألا ينطقن بحرف، وإلا فهو آخر يوم لهن في البيت، فاختفاء صورة الجد وهكذا بالعمد، مسألة ليست هينة بالنسبة لنا، ولو انكشف أمرها سوف نُعاير بها بين الناس. والله لم نقصر، فعلنا كل ما في الوسع، ورغم ذلك لم يمضِ يوم وشاع الخبر، وانفضحنا في كل البيوت!

***

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بدأت الإشاعات..

قيل بأن الجد مات محسورًا، وفي مرضه الأخير كان غاضبًا من كل البيت..

قلنا: لا بأس، إشاعة وتغور! فهكذا الناس فيهم من يكره ومن يحب، واستحملناها وسكتنا، غير أنها وبكل أسف كانت أول الغيث ومجرد (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)، فبعد يوم وصلتنا حكاية ثانية، قالوا إن الصورة لم تَضِعْ مثلما نقول، فكل هذا كلام للتعمية! الحقيقة وما فيها أن الأمر كله مخطط له من قبل، ومِن مَن؟ من الجد ذاته، استخسرها في أولاده الأوباش!

يتأمل أبي من ينقل إليه هذا الكلام، وبوجه أقرب إلى الابتسام، يقول له:

- يا سلام! وبعدين؟

فيشعر الرجل بالحرج، إلا أن أبي يشجعه على الاستمرار، فيتكلم ويقول: ويقولون أيضًا يا حاج محمود، إن حضرة العمدة رحمة اللـه عليه لجأ لرجل ممن يخاوون الجان، واتفق معه على أن يكلف أحد العفاريت الذين يعملون تحت إمرته، بأن يتصرف في هذه المسألة، ويخفي الصورة عن عيوننا بعد أن يموت!

وأبي يجاريه ويهز رأسه متصنعًا الاهتمام..

ظنَّنا بعدها أن الأمر إلى هنا وكفى، غير أنه بعد عدة أيام افترى علينا الملاعين وجاءونا بكلام لا يرد على بال أحد، قالوا: إن العفريت الذي أنجز هذه المهمة، أتى للجد قبلها في صورة غراب ووقف على فرع شجرة تُرى من نافذة غرفته، وأنه أومأ له بمنقاره مرتين بألا يقلق أبدًا ويطمئن، فكل شيء سوف يتم حسب الاتفاق!

مكثنا أسابيـع على هـذا الحـال، نخرج من حكاية لندخل في الثانية..

***

كنا نندهش من هذا الكلام، أما أبي فاتخذه لعبة يلعب بها..

فأول ما كانت تأتيه الإشاعة طازجة، كان الغضب يبدو عليه لحظة واحدة، ثم ينفجر بعدها في الضحك! طبعه هكذا، وإلى حد ما كان (ابن حظ)، ومهما الذي كنا فيه لم تكن تفوته المزحة

أو القفشة التي تصيب الهدف، يظل هو وأعمامي يتحاكون ويتسلون بها وبكل جديد يرد، ويضحكون وفى وسط الضحك يشتمون هؤلاء الأنجاس الذين لا يعرفون (رب ولا رسول)، وينكدون علينا بهذا الكلام قليل الأدب. وأمي الغيظ يأكل قلبها، فلم يكن يعجبها أخذهم الأمر بهذه الطريقة، وفي السر بيني وبينها كانت تنتقدهم وتتهمهم بأنهم لا يفهمون في الأصول ويخلطون الهزل بالجد.

وتشتت البيت ما بين البحث عن الصورة، ومجابهة هذه الإشاعات، ودون أن نحقق أية نتيجة، فلا نجحنا في هذا ولا ذاك!

وشيئًا فشيئًا مات الموضوع، لم يمت كلية، بين الحين والحين كنا نتذكر الذي حدث ونضرب كفًا بكف.

***

2

لم يمكث أبي طويلًا بعد الجد..

رحل هو الآخر، وبعده بسنة ماتت أمي. وقد شهدت بنفسي العصر الذهبي للبيت أثناء حياة الجد، كنا نعيش حياة لا نرضى بغيرها، ولا نشعر بأن أي أذى يمكن أن يحيق بنا طالما هو فينا ونتَّكئ عليه، وبعد أن ذهب استمر الحال مع أبي، استمر لبعض الوقت وبالدفع الذاتي لا أكثر ولا أقل، ثم بدأ الانهيار.

أنا - عن نفسي - آثرت الفرار، لم أشأ البقاء في هذا الجو، قفزت من البيت مثلما تقفز الفئران من المراكب الغارقة.

فأول ما قضت أمي، جمعت أشيائي وتركته لهم. وكانت هذه

أصعب خطوة أخطوها في حياتي، فلم يكن بيتنا مجرد بيت، جمادًا بغير قلب، أسقفًا وجدرانًا ونوافذ من خشب، بل حياة بأكملها، لها روح ونبض وأحاسيس، حياة كان لي فيها أول شهيق.. أول زفير.. أول بسمة.. أول ضحكة.. أول لمســة.. أول كل شيء، حيــاة عرفتها وعرفتني من قبل أن أحبو على قدميّ..

لكن ما الذي بيدي.. هذه هي تصاريف القدر، وهذه هي الأحكام التي ليس لها نقض..

كنت وحيــدًا، لا أخ لي ولا أخت بين أعمام تغيرت طباعهم، وذرية أنجبوها ليس لها في حلقي أي طعم، وبرحيلي وبموت أمي وقبلها أبي، انقطعت رائحتنا من البيت.

***

صندوق الجد هو الشيء الذي تمسكت به، قبل أن أسلم على البيت سلامي الأخير..

سألتهم أن يعطوني إياه..

نظر الأعمام إلى بعضهم البعض ثم وافقوا، وأظنهم كانوا يتعجبون مني في صدورهم، حاصروني كالكماشة قبلها بأيام حتى تنازلت لهم عن ميراث أبي بنصف الثمن، وأكلمهم الآن في ماذا؟ في صندوق من الخشب!

جردوه أمامي وأخذوا منه كل الذي يهمهم، حُجَّة البيت، عقود الأرض، أوراق تخص وابور الطحين، وكمبيالات للجد على الناس. تركوه فارغًا، إلا من ساعة جيب ومسبحة وزر طربوش.

تأمل أحد الأعمام الساعة، وأنا أرمقه بانفعال خوفًا من أن يطمع فيها.

قال: ماركة الترام! اشتراهــا أبي من ميدان العتبة، وكنت معه وقتها.

ويعود برأسه إلى الــوراء متذكرًا: كانت الدنيا زحامًا في هذا اليوم، الناس كلها فرحانة بجلوس (الملك فاروق) على العرش، مواكب وزينات وأفراح.

ثم يبتسم: أبي كان خائفًا عليَّ يومها ويقبض على يدي بكل راحته، كنت صغيرًا، ابن سبع سنين.

عم آخر يتأمل الساعة، ويسأله: أترغب فيها؟

يسكت لحظات ويقول: لا. لا. لم يعد لها نفع.

ويعلق العم الثالث: معك حق، أكلها الصدأ وعقرب مكسور ومات الثاني في موضعه.

وألقوا بها في الصندوق، لم يتبقَّ إلا رزمة من الورق ملفوفة بأستك قديم، وظرف به بعض الصور. لم يعبئُوا بالصـور، قلبوها

بأصابعهم وتركوها، الأوراق هي التي فرزوها ثم رموها هي الأخرى في الصندوق.

***

ورحلت..

رحلت ومن يومها لم أرجع إلى البيت مرة ثانية، وحتى بعد أن كبرت لا أزال على هذا التصميم.

أردت أن يبقى في داخلي، على آخر صورة شهدتها له..

وحسنًا فعلت..

فقد وصلتني الأخبار بعدها بأنه بعد موت العم هلال، هجم عليه العمّان الآخران ومعهما الذرية والأحفاد وأوسعاه تنكيلًا وإصابات. حوائط تهوي وأساسات تُزال وهدم وتكسير، وكتل من الإسمنت تقام فوق بعضها البعض، ومن اختصر الطريق وباع حصته للغريب، أو وضع يده على ما يخصه في البيت ليتصرف فيه فيما بعد.

وراح البيت..

راح إلا أنه لا يزال مطبوعًا في قلبي مثلما كان، ولا يمر يوم إلا وأخال نفسي فيه..

وأمي وهي تدير الحركة، أو بعد صلاة العصر وقد فرشوا لها الحصير لتستقبل النسوة اللاتي جئن للثرثرة وتضييع الوقت.

وأبي الذي طعن في السن، وقد سمع سعلة الجد وأحس بأنه يقترب، فأطفأ سيجارته على عجل، وطفق يهش دخانها خوفًا من أن تصل إليه الرائحة.

كنا نحفظ سعلاته عن ظهر قلب..

كل سعلة لها المقام الموسيقي الذي يخصها، سعلة تقول لنا: إنه قادم من بعيد وعلينا الانتباه، وأخرى يستهل بها الحديث، وسعلة تحذير إذا شعر بأي تجاوز للحدود، أما سعلات البرد والزكام فنغمتها معروفة وليس لها تصنيف.

***

وجوه أخرى لا زلت أتذكرها..

نسوة البيت خاصة، زوجات الأعمام والخادمات اللاتي قضين معنا أغلب أعمارهن، أو هؤلاء الذين كانوا يترددون علينا كل يوم: خفراء الجد، بائعات يحملن على رؤوسهن سلال البيض وقدور الجبن والسمن ويصررن على البيع لنا، والذين كانوا يطرقون بابنا أول الصباح ليأخذوا المواشي ويسرحوا بها.

أتذكر أسماء كل هؤلاء وتارة أنساها، كذلك الوجوه، وإن كان بعضها يبدو لي واضحًا وبعضها ملامحه غائمة، ومنهم من يغيب عني بالسنين ثم فجأة يلوح، يلوح بغير سبب وبدون حتى أن أستدعيه.

وأسمع بموت أحدهم فيلحُّ عليَّ وجهه ليل نهار، وأنساق معه إلى الماضي البعيد، تطفو أمامي أشياء له من ثلاثين وأربعين سنة، صغائر ومنمنمات ما كنت أحسب أبدًا أن لها وجودًا في الذاكرة، كما لو أن صاحبها هذا حي بداخلي وأنا لا أشعر ولا أحس!

الأعمام أيضًا كانوا يمضون أمامي، فلم أشهد منهم أي سوء في حياة الجد، بعده فقط تغيرت الأمور.

تأتيني هذه الخيالات وتروح، ناهيك عن الأحلام، فأمي وأبي بالذات كانا يخايلانني برموز وإشارات أحتار في معانيها..

وتشتد حيرتي..

فلا أعرف على وجـه التحديد، إن كان عقلي البـاطن هو الذي يغويني ويلعب بي في المنام، أم هما بالفعل وجاءاني من مكانهما البعيد!

وإلا الجد..

فله وضع مختلف، وإذا حضر فلحضوره مذاق خاص. لم يرد في خاطري مرة إلا وأنا في أقصى حالات الاستقبال، إلا ويغمرني شجن لذيذ، وكأن الزمن غير الزمن وأنا الولد الصغير والجد عاد إلى الحياة!

***

3

أتأمل الصورة المعلقة فوق الجدار..

الجد بالطربوش، وعباءة مزمومة فوق الصدر تخفي ما وراءها من ثياب. ولا وجود طبعًا لأية ألوان أو رتوش، فالصورة بالأبيض والأسود وليست من منتجات اليوم.

وأين الآن يا تُرى، هذه العصا التي يتَّكئ عليها بيده؟!

عصا من الآبنوس لها مقبض مزخرف بالفضة، وفي الكعب تلبيسة من نحاس..

لن تضيع هذه العصا أبدًا من الذاكرة، فطالما هَشًّنا بها نحن

الأحفاد، أو أشاح بها في وجوهنا بغضب، كنا نفر منه كالفئران ويا ويلنا ساعتها إذا لحقت بنا يداه. لسنا نحن فقط، الكبار أيضًا كانوا يرمقونها بحذر كلما دخلوا معه في جدال، خوفًا من أن ينالهم بها مثلما فعل مع العم هلال، عندما نطق مرة في وجوده بكلمة لا تليق.

وتروح عيناي إلى التقطيبة التي تعلو الوجه..

كان جادًا، جادًا في كل شيء حتى وهو يقف أمام عدسة التّصوير. شاربه هو الآخر لم يكن هينًا، كان كثيفًا وملفوفًا من عند الأطراف، كان أكبر داعم له، فهيبته وطلته كانتا تحذران أي إنسان من التجاوز معه. لم يتغير الشارب كثيرًا عما في الصورة، ظل قويًا حتى يومه الأخير، البياض فقط هو الذي تمكن منه، فلم يتهدل ولا أصابه وهن ولا جفاف.

لا أعرف متى أخذوا له هذه الصورة..

ولا هو نفسه كان يعرف، قال لي مرة: إنها من أيام (الملك فؤاد)، وكنت وقتها في عز الشباب، لكن في أية سنة بالضبط؟ لا أدري على وجه اليقين.

***

تأخذني الصورة إلى بيتنا القديم..

فلم يكن كأي بيت..

بمساحة نصف فدان على الأقل، غير أنه لم يبدأ هكذا، بدأ ببيت صغير آل للجد من أبيه، دور واحد جدرانه سميكة ومسقوف بعروق من الخشب، والدَّرَج المفضي إلى السطح عمره الافتراضي انقضى ويحذروننا من الصعود عليه. والغرف أربع فقط، وفَسَحة طويلة في آخرها مطبخ ومرحاض.

حدثت التوسعات فيما بعد..

لم أشهدها بنفسي، سمعت بها فقط، من أمي مرة ومن أبي مرة أو مما كان يقوله الأعمام، وإن كان منهم من لم يشهدها مثلي ويحكي نقلًا عن الغير.

يقولون: إن الجد أغرى أصحاب البيوت التي حوله حتى اشتراها منهم، وشيئًا فشيئًا وصل البيت إلى ما هو عليه الآن. سور من الدبش وبوابة من الحديد، يضمان ثلاثة بيوت كل واحد منها من طابقين، وبأسقف من أسياخ الحديد والإسمنت، والبلاط الملون في كل مكان، الغرف والمطابخ والحمامات. بيت منها لأبي وبيت للعم هلال والثالث للعم سعيد، وأمامها حوش واسع به طلمبة ماء ومبنى صغير على جنب يسمونه (الملحق)، به غرفة للخزين وأخرى لأشياء تخص الغيط، وأفران وكوانين يخرج منها الطعام لكل البيت. فلم نكن نأكل ما نشاء، الطبق الرئيس لا بد أن يستشار فيه الجد.

يسألونه كل صباح، فمرة يقول: اشتروا لحمًا من الجزار، أو اليوم دجاج أو إوز، وقد تشتهي نفسه العدس فنأكله كلنا.

والغريب أن أحدًا منا لم يتبرم يومًا من هذه الاختيارات، فالطعام الذي أحبه أحببناه كلنا، والطعام الذي لم يكن يستهويه كنا لا نميل له نحن الآخرين.

وفي آخر البيت ممر يفضي إلى شونة الدواب، كنا نرى البهائم وهي تخرج كل صباح مخترقة الحوش، وساعتها يكون الحذر في أقصى درجاته، يســحبوننا نحن الصغار بعيدًا عن مسارها حتى لا تدهسنا جاموســة أو يركلنا حمار. أما البط والإوز وباقي الطيور، فكانت تشطح في كل البيت، ولولا يقظتنا لها لدخلت علينا الغرف.

مطارح الجد كانوا يسمونها (السكن)، وكانت منفصلة نوعًا ما عن الحوش، متصلة به فقط بباب من الخشب، وبعيدة عن الضجة والحركة اليومية التي تجري فيه، كما أن لها بابًا آخر يُفْضي مباشرة إلى الدوَّار، والجد وهواه فإما أن يخرج منه دون أن يشعر به أحد، أو يجتاز الحوش ويخرج من الباب الحديد.

***

العم الثالث (العم حامد)، هو الوحيد الذي ليس له وجود في البيت، طرده أبوه في ساعة غضب، فأكمل حياته بعيدًا عنا.

الأصغر بين إخوته، ولم يلقَ الرعاية الكافية لمرض أمه - جدتي - وانشغال الجد. وما إن خط شاربه وأصبح مراهقًا حتى أذاقهم

الويل، قلة أدب مع الناس، تجاوزات مع إخوته، وإذا كلفه الجد يومًا بمتابعة الأرض أو تسليم المحصول لأحد التجار، لا بد أن تحدث مشكلة. ناهيك عمن كانوا يطرقون بابنا كل يوم، ومنهم المبطوح أو المشتوم بالأم والأب، وإلا الخادمات أو الفلاحات اللائي يتسكعن على السكك!

ضبطوه مرة في وضع مُخلّ مع إحدى الخادمات، يقولون: إن الجد كاد أن يصاب بالشلل يومها، علقه في سقف الشونة كالذبيحة ونزل عليه بالخيزرانة حتى كلت يداه، ثم تسلمه أبي بعدها.

يصيح فيه الجد بكل ما فيه:

- الحرام في بيتي يا وسخ، أعوذ بالله!

ويخلع المداس ويقذفه به:

- وفي الشونة وبين البهائم يا حلوف!

ويشخط في أبي:

- مالك! مرخرخ كده ليه، كسر الخرزانة عليه.

فتح الجد تحقيقًا بعدها ليسد هذه الثغرة، وكلف أمي بالتحري عن أصل وفصل باقي الخادمات أو غيرهن ممن يترددن على البيت. وانتهت المسألة بطرد هذه الخادمة وخادمة أخرى عليها شكوك

وملاحظات، غير توصية قُدمت له بألا تخدم عندنا امرأة إلا إذا كانت فوق الخمسين، بدا الأمر كما لو أنه لجنة من لجان تقصي الحقائق وضبط المسار!

استدار الجد بعدها للعم حامد، أقسم عليه قسمًا مغلظًا بألا يبيت في البيت بعد الآن، فتسلمه أحد أخواله وأبقاه عنده عدة أشهر حتى طابت نفس الجد، وعندما آن الأوان زوجوه وأسكنوه في بيت بعيد.

لا أذكر أني رأيت هذا العم كثيرًا، مرة عند وفاة جدتي ومرات بعدها كنت ألقاه مصادفة في الطريق. كان يسلم عليَّ بتحفظ ويقتصد في الحديث، أنا الآخر كنت أعامله بنفس القدر، العلاقة الخاصة التي بيني وبين الجد وقفت حائلًا بيننا.

***

4

وأسأل نفسي الآن: متى تعرفت على الجد؟

قطعًا كنت في حجم الإوزة وقتها، أحبو حول أمي أو أستكين في حجرها وساعدها يطوقني من كل الاتجاهات.

غالبًا ما نكون فوق حصيرة، كانوا يفردونها لنا في حوش البيت. جلستها فوق الحصيرة كانت محسوبة بالسنتيمترات، في المنتصف بالضبط وخلف ظهرها مسند من القطن. وإذا جاءت واحدة من زوجات الأعمام لتجلس معها، تجلس على الحرف، بل وحتى لو لم تكن أمي موجودة كن يترددن في الجلوس مكانها، فهذا هو قانون البيت وإن خالفته إحداهن تعرض نفسها للمشاكل والمساءلة!

لم يتغير الوضع إلا بعد وفاة أبي..

فساعتها شعرت أمي بأن زمنها انتهى، وألا داعي للدخول في معارك خاسرة. فعلت ما يفعله رجال السياسة المكسورون، تَنحَّت من نفسها قبل أن تجبر على ذلك، انسحبت بهدوء واعتكفت في بيتها، وتقدمت زوجة العم هلال لتشغل مكانها.

***

في هذا الوقت البعيد، كانت أمي تنشغل بحركة البيت ويقل تركيزها عليَّ، عيناها على التي تكنس والتي تغسل أو تجلس أمام الفرن أو الكوانين، وربما تدخل في أحاديث طويلة وتنساني. وأنشغل أنا الآخر بالمفردات التي تخصني، بطة تعرج في مشيتها، دجاجة تتعارك مع أختها، أو الديوك الرومية التي كانت تقوقئ بلا انقطاع، وكنت أحيانًا أتتبع الطيور التي تحلق في فضاء الحوش، وتحط فوق رأس الطلمبة غامسة مناقيرها في الفوهة بحثًا عن نقطه ماء.

كل هذه التفاهات كنت أتسلى بها، تسلية بنت وقتها، أراها ثم أنساها، فلم تشدني أو طرحت بداخلي أي تعجب أو استفهام. الذي جذبني بحق هو مسكن الجد، فرغم أنه مجرد بناية بالطوب اللَّبِن، بناية لا معنى لها تطل علينا من وراء الباب الخشب، إلا إنها أعطتني أول درس في التساؤل والفضول!

والسبب في ذلك نسوة البيت! ردود أفعالهن..

كن يتحاشين الاقتراب منه، وإن اقتربن يقتربن بحساب، ولو تصادف وعلت أصواتهن لأي سبب، كانت إصبع ترتفع في الهواء محذرة من أن يصل الصوت للجد، فتنقلب الضجة إلى صمت. ناهيك عن الترقب الذي كان يعلو الوجوه إذا سمعن صرير الباب الخشب، وشعرن بأنه يتأهب للخروج. وإذا صدق حدسهن وتأكد فعلًا أنه الجد، فإن البيت كله كان يقف له وقفة أشبه بوقفة الانتباه التي يقفونها في الجيش.

كل هذا الذي كانت تلتقطه عيناي، تراكم في صدري يومًا بعد يوم، وكأني بِتُّ أسأل نفسي عن هذا الذي يعيش هنا، وله كل هذا الجبروت!

***

لم تطل التساؤلات..

في أول فرصة سنحت لي، طرت نحو مسكن الجد. ففي صباح أحد الأيام دخلت علينا بائعة من البائعات، وما إن هبطت بالحمولة التي فوق رأسها وبدأت أمي في التّقليب فيها، حتى غافلتها وحبوت هاربًا، وسريعًا سريعًا إلى الباب الخشب وعندما وصلت وجدته مغلقًا، فأقعيتُ أمامه حائرًا.

لا أدري إن كنت مكثت طويلًا أو قليلًا على هذا الحال، أو ما الذي فعلته بالضبط..

إحدى الخادمات قالت وقتها: إني لم أبك مثل باقي العيال أو حتى شعرت بأي خوف، كنت أعافر وأقذف الباب بحصى ألتقطه من الأرض. وخادمة ثانية أكدت على أنه ليس حصى، بل كان في يدي عود أطرق به بجرأة وثبات، وغير ذلك من كلام كله كذب ومبالغات كن يأتين به من رؤوسهن مجاملة لأمي، فأنا أبنها الوحيد، الابن الذي جاء بصعوبة وبعد عشر سنوات من الزواج، وكل إطراء يقلنه في حقي كان يرفعهن درجة عندها.

المهم أن الباب انفتح مرة واحدة..

ليس بسبب محاولاتي البائسة بالطبع، بل لأن الجد كان خارجًا بالمصادفة. وأول شيء حدث أنه تعثر فيّ وانقلبت أنا على ظهري باكيًا، ولولا ستر اللـه لدهسني بقدميه. لحق نفسه في اللحظة الأخيرة، وهبط برأسه يتأملني باستغراب وهو يتمتم بحذر:

- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ! إيه ده!

وانحنى يتحسس ما أصابني، ثم شرع في الصياح على أهل البيت، هؤلاء التعساء الذين يدعون أولادهم يسرحون هكذا، كما لو أنهم قطط أو فئران!

لم يكن يعرف من أنا!

الأولاد يملئُون البيت، ورأسه مشغول بألف مشكلة، فهل أنا حفيده

(علي) ابن ولده الكبير (محمود) أم (مصطفى) ابن (هلال)، فقد ولدنا في شهر واحد، ولنا تقريبًا نفس الشكل ونفس الحركات.

وتكتشف أمي أنه أنا، فتسرع إلينا مخضوضة، ولتلافي غضب الجد تهددني بعود في يدها:

- آه يا مضروب!

وبحركة مسرحية:

- إيه اللي جابك هنا! يعني أنزل على جتتك بالعود.

وتستسمح الجد:

- غصب عني، عيل وفلت من حجري.

وأتوقف أنا عن البكاء متعلقًا بجلبابه، أشده منه لينتبه لي، وكلما نظر إليَّ بدهشة كنت أضحك له، ضحكات وراء بعضها البعض وكلها بصوت.

ومن يومها دخلت قلبه..

أحبني وأحببته..

***

لم يكن يمر يوم بعدها، إلا ويسأل عني..

وأينما رآني كان يحملني إلى مسكنه، وإذا جاءت أمي لتأخذني كنت أبكي وأتشبث به. علاقته بباقي الأحفاد لم تكن هكذا، ولا حتى بواحد على عشرة من هذا المقدار، كنا تسعة نعيش معه، غير الثلاثة الذين أنجبهم العم حامد ويسكنون معه خارج البيت.

أحفاد هو في عيونهم مجرد جد، جد مخيف ويجب الحذر منه! أما أنا فلم أشعر بشدته ولا بالصرامة التي تبدو عليه. تخطيت هذه المسألة، تخطيتها بغير قصد، شيء رباني جعلني أراه على غير ما يراه الأحفاد. كنت ببساطة مسحورًا به، مسحور لدرجة مؤذية، وكانت المشاعر تأخذني لبعيد وأتمنى لو كان هو أبي!

لم أكن أتمنى فقط، كنت أتعامل معه على هذا الأساس، وأطلب منه أشياء لا تُطلب إلا من الأم أو الأب. أعود من المدرسة وأبدأ به أولًا لينزع عني المريلة، أو يسحب من قدمي الحذاء، وقبل أن أخرج أطلب منه المصروف وليس من أبي، وأجادل إن لم يعطني الذي أتوقعه. كنت أفعل معه أشياء لا يتجاسر عليها باقي الأحفاد، كانت بينه وبينهم بحورٌ ومسافات!

وليس مرة ولا مرتين أو حتى ثلاثًا، مرات لا حصر لها كنت أجمع ملابسي لأني سوف أعيش معه. تضبطني أمي وأنا متجه بها إليه، فتحايلني حتى أعود وهي تقول لي ضاحكة: أتتركنا يا علي؟!

أقول: نعم.

أقولها بإصرار، وهي تسايرني قائلة: من جانبي ليس عندي أيه مشكلة، لكن أبوك، أتترك أباك؟!

أقول: هو ليس أبي، جدي هو أبي.

فتتأملني بدهشة، وتقول: هو من إذن؟

أصمت عاجزًا عن الإجابة، كنت في السادسة أو السابعة وقتها، مجرد طفل يتشبث بما يقول ظنًا منه أنه الصح.

وتربّت هي على كتفي قائلة:

- زي بعضه، هو الأب إيه والجد إيه.

وإذا تماديت، تبدأ في الغضب:

- إيه دا يا علي، إخص إخص..

ثم التشويح:

- جدك! جدك دا إيه! إن طلع وللا نزل هو جدك مش أبوك..

غير أنها تسرع وتضبط لسانها، تخشى أن يسوقها الانفعال إلى الخطأ، فالجد كان يعاملها كابنته ويضعها في مرتبة أعلى بكثير من مرتبة زوجات الأعمام، ولولاه ما سيطرت على البيت بهذه الصورة ولا كان لها كل هذا الوضع.

تبدو أمامي وكأنها في معضلة، ولد عنيد يُدخلها في متاهات

ويجرها لكلام كله خسارة وغلط، وهي واسعة الحيلة في كل شيء إلا هذه النقطة بالذات.

أبي بالفعل كان طيبًا، حتى البعوضة لم يكن يؤذيها، ليس فيه ثمة مشكلة، المشكلة فيَّ أنا وفي هذا الإحساس الذي كان ينتابني! كنت ألوم نفسي بعدها، وعندما ألقاه أتودد له بغير سبب وأبالغ في إظهار محبتي. كنت مرتبكًا في داخلي، وكأن جزءًا مني يداري حماقة الجزء المشدود للجد.

أتذكر هذا الآن ولا أستغربه، فقد أحاط بي الجد من كل ناحية، لم أكن أرى في الدنيا سواه..

***

5

ولد آخر، بدأ في التردد على مسكن الجد..

(مصطفي) ابن العم هلال، فقد شجعته أمه على الدخول معي لتكون له حظوة مثل حظوتي، إلا أنه كان مرعوبًا ويفر هاربًا أول ما نصل إلى الباب الخشب. كان يظن أنه إن اجتاز هذا الباب فإن الجد سوف يقضي عليه، ولن يرجع لأمه مرة ثانية!

تشجع بعدها، ولكن بشرط! ألا يكون الجد موجودًا.

أقول له: لقد خرج، فهيا بنا.

فيقول: لا. ربما يرجع في أي وقت، لن أدخل معك إلا عندما

يترك البلدة كلها ويسافر إلى مصر، ساعتها فقط سوف أطمئن.

وكان يترقب هذا السفر..

وأول ما رأى الجد بالعباءة والطربوش، نظر لي نظرة تقول: إنه ممكن الآن، ثم سلم أمره لله ودخل معي.

***

جدتي على الدوام في الفراش..

تنام وتأكل وتشرب فيه، لا تتركه إلا إذا حملوها إلى الحمام. مشلولة ولا تستطيع خدمة نفسها، وتلازمها امرأة من أقربائنا اسمها (وهيبة)، تخدمها طول النهار ولا تترك البيت إلا بعد أن تنام.

في أول يوم دخلنا فيه معًا، تبسمت لي الجدة كعادتها، ثم مدت عنقها محدقة في هذا القادم الجديد، فأنا فقط الذي كانت تعرفه، كل يوم عندها، أما الباقون فلم تكن تراهم إلا في المناسبات.

تقدمت خطوة إلى الأمام، وقلت لها:

- دا مصطفى.

فرنت بعينيها مستفسرة:

- مصطفى! مصطفى مين؟ عَيِّل من عيالنا؟

قلت لها مؤكدًا:

- مصطفى! مصطفى ابن عمي هلال.

فأشارت بكفها متسائلة:

- هلال مين؟

أعرف أن نوبات خرف تنتابها أحيانا، تنتابها للحظات تتوه فيها عما حولها، فقمت بتذكيرها:

- عمي هلال! هلال أخو أبويا.

وهي لا تزال تحدق فيَّ، فربت على كتفها مثلما كان يفعل جدي عندما تقع في هذه المطبات، وقلت لها بصوت ناعم خافت:

- عمي هلال! هلال جوز خالتي محاسن! هلال..

لم تدعني أكمل، تذكرت..

- هلال..

قالتها ممطوطة، وأردفت ضاحكة:

- هلال! هلال الرغاي الكداب، دا أنا بقالي شهر مشفتوش، هو المتعوس ده عَزِّل من البيت وللا لسه قاعد معانا فيه؟

ثم أشارت إلى مصطفى:

- والمحروس ده ابنه؟

أومأت برأسي بأن (نعم)، وظللت هي عينيها بكفها مدققة في وجهه، ثم قالت:

- إنت يا واد مناخيرك قد الخيارة كده ليه، مناخير أمك دي ولا مناخير المخفي أبوك؟!

فأحس بأنه وقع في فخ وكل مخاوفه كانت في محلها، فالمشكلة ليست في الجد فقط، الجدة هي الأخرى تشكل خطورة عليه، ورجع بقدميه خطوة إلى الوراء وأنا أشده من يده. وشعرت هي، فنادت عليه بصوت حنون وشجعته كي يقترب، وعندما دنونا منها ربَّتت على اللحاف الذي تتغطى به عدة مرات، ففهمنا أنها تطلب منا الصعود إلى جوارها.

***

كانت أستاذة في (الحواديت)..

تحكي لنا كل مرة بالخمس والست (حواديت)، فرصة وأُتيحت لها، الجد في الخارج طوال اليوم، ووهيبة إما في المطبخ أو مشغولة بشيء في يدها، وهي وحدها ولا تتكلم مع أحد. تظل تحكي وتحكي ونحن حولها كالقطط الأليفة، وعندما نشعر بأنها نامت منا ندعها وننصرف.

مع طول ترددنا عليها، أصبحت تسألنا عن (الحدوتة) التي نرغب في سماعها، وقبل أن تسمع جوابنا، كانت تقول: ما رأيكما لو بدأنا (بحدوتة) الأرنب العبيط، لم أحكها لكما من قبل.

ندرك أن الأمر اختلط عليها، فقد سمعناها عشرات المرات ونحفظها مثلما نحفظ سورتي (الفاتحة) و(**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**)، نصيح بأن: لا. لا. إما (حدوتة) الحمار الأخنف أو (حدوتة) السحلية العمياء، فتبدأ بواحدة منهما.

المشكلة التي كنا نعاني منها، أنها كانت تُدخل (الحواديت) في بعضها البعض، تبدأ بواحدة ونُفاجأ وهي في المنتصف أنها دخلت في (حدوتة) ثانية، وعندما نلفت نظرها تقول:

- آه واللـه! مش هي دي حدوتة الجاموسة أم كرش، أنا عقلي راح فين!

وتتهم خادمتها وهيبة بأنها السبب، كان المفروض أن تأتي لها بحُقّ النشوق منذ ساعة، وها هي النتيجة دخلت المسائل في بعضها البعض.

وتنادي عليها بغضب:

- إنتي يا مضروبة، فين الحُقّ ؟

وبعد أن تفرغ من مراسم النشوق، وتعطس في وجوهنا عشرين عطسة على الأقل، تقول:

- آهو أنا كده بقيت عال.

وتتأملنا بعيون يقظة:

- وقفنا لحد فين يا ولاد؟

نقول:

- لحد مالجاموسة أم كرش شتمت الحمار وكرشته من الشونة.

فتجيبنا باستنكار:

- كرشته! كرشته دا إيه، دا هوا اللي رفسها!

ونحن نؤكد لها العكس ونصر على أن الحمار هو الذي انشتم وانكرش، فتصمت مراجعة نفسها ثم تقول:

- أنا كده اتلخبطت، أحسن حل إني أبتديها من الأول، وللا تسمعوا حدوتة الغراب الأعور؟

فنصيح بصوت واحد:

- أم كرش. أم كرش.

***

أثناء اندماجها في الحكي، كانت تدخل علينا وهيبة حاملة طبق الحساء، أشياء مهروسة في بعضها البعض، كوسه، بطاطس، جزر، ونحن نكتم غيظنا من هذه (العطلة).

تدفع وهيبة أحدنا بعيدًا وتجلس مكانه، ثم تملأ أول ملعقة وتضعها في فم جدتي، ثم الثانية والثالثة، غير أن هذه الطريقة كانت تضايقها

وتود الأكل بنفسها، فتسحب الملعقة من يد وهيبة وتملؤها هي من الطبق. يدها ترتعش، والملعقة بدأت في الاهتزاز، فتتوقف بها في الهواء وتنظر إلينا، وكأننا شجعناها! فتكمل خط سير الملعقة وتصل بها في سلام إلى فمها، ورغم ذلك كان يتساقط بعض مما فيها ويبلل صدرها. نختلس أنا وابن عمي النظر إليها كاتمين ضحكاتنا، فقد حكينا عن هذه الأشياء من قبل لأمهاتنا، وحذرننا من الضحك أمامها أو أن يغمز أحدنا للآخر، وإلا فإن الجد سوف يمسحنا مسحًا من على وجه الأرض!

بعد أن نعود إلى بيوتنا، كان كل منا يتيه في الجدة و(حواديتها).

كنت أقول لأبي: إنني عندما أكبر سوف يكون لي أذنان كبيرتان كأذنَي الحمار الأخنف، أو ربما أفقد البصر وأجرى هنا وهناك على غير هدى كالسحلية العمياء، فيرمقني بدهشة وأنا أكمل:

- مصطفى ابن عمي هو اللي عايز بطنه تبقى كبيرة زي الجاموسة أم كرش.

تتبدل دهشة أبي إلى غضب، وهو يقول:

- سحلية إيه! وكرش إيه! جبت الكلام ده منين؟

- من جدتي.

فيضرب كفًا بكف:

- اللـه يسامحك يامَّه، خيبتي الوله!

***

6

وانحرمنا من (الحواديت)..

فذات صباح سمعنا وهيبة تصرخ صرخة مؤلمة، فجرينا إليها كلنا، غير أننا لم نلحق الجدة ولو بشربة ماء..

الجد في الخارج، و(القط) خفيره الخصوصي لا يزال في غرفة السلاحليك، صاحوا عليه فطار وراءه. كان في جولة تَفقُّدية هو وشيخ الخفراء، انتحى به القط ولهاثه يقطع عليه الكلام:

- عايزينك في البيت يا حضرة العمدة.

- البيت!

فنكس القط رأسه:

- شد حيلك يابا الحاج.

- أشد حيلي! أشد حيلي في مين؟

ثم أسرع الجد قائلاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! الله يرحمك يا عبداللطيف..

خرجت منه بطريقة عفوية، ليست عفوية تمامًا! فالجد في عقله الباطن كان يتمنى الموت لعبداللطيف، ويبدو أن هذا (الباطن) فسر كلام القط على هواه وتسرع في التعبير. والسبب معروف، فعبداللطيف هذا شقيق الجد، شقيقه التوأم، وحسب السن والمقام هو من الكبار في البلدة، غير أنه لم يكن مُشرِّفًا، كل يوم له غاغة ومشكلة وأحيانًا فضائح تدعو للخجل، ولولا هيبة الجد لكان للناس معه تصرفٌ آخر.

أدرك القط اللبس الذي وقع فيه الجد، فلحقه قائلًا:

- لا إله إلا الله! الحكاية مش كده يا حضرة العمدة! الشيخ عبداللطيف زي البمب ولسه شايفه دلوقتي وهو واقف قدام الدوَّار ولا مؤاخذه كده مشلَّح هدومه، وأعوذ بالله...

ثم تأدب قائلاً:

- آهو كان واقف وخلاص.

- أمال مين؟

- الحاجة الكبيرة.

فبدا الفزع على وجه الجد:

- الحاجة بتاعتنا! أم محمود؟

وطارا إلي البيت..

***

لم يمر علينا هذا الحدث ببساطة، خاصة أنا..

كان حدثاً فارقاً في حياتي، فلم أعرف الموت من قبل، ولا جربته على أحد ممن أحبهم، موت الجدة بالنسبة إليَّ كان أول وأصعب تجربة..

وقفت في ركن من أركان الغرفة، أحدق في جسدها المسجى فوق الفراش. كانت ميتة لتوَّها ووجهها تغطيه طرحة سوداء، وابن عمي مصطفى - شريكي في سماع (الحواديت) - على مسافة مني ونتبادل النظر. كان خائفاً مثلي وفي حالة تلتمس المساعدة، وعندما لمح أمه تعلق بجلبابها غير أنها لم تشعر به، وفي حركتها من هنا لهناك أفلتت يده، فطفق يتلفت حوله ثم أسرع هاربًا.

وامتلأت الغرفة بالنسوة..

نسوتنا فقط، فلم يخرج الخبر من البيت بعد، وأمي بكاء في بكاء ورغم ذلك كانت تدير اللحظة وتعطي الأوامر. تسأل إحدى الخادمات عما إذا كان الجد قد وصل أم لا، وتكلف أخرى باستعجال المرسال الذي أرسلته لأبي وأعمامي، ثم ترمقنا نحن الأطفال وتهشنا بيدها إلى الخارج، إلا أني غافلتها ورجعت.

أما زوجات الأعمام ومعهن الخادمات فقد انهرن تمامًا، بَدوْنَ كما لو أنهن لسن النسوة اللائي كنت أراهن قبل قليل. تبدلت وجوههن، خلت من أي لطف أو وداعة، فلا العيون هي عيونهن ولا الأنوف هي الأنوف وصفحة الوجه عنيفة مقبضة.

كن يبكين بشراسة، بأقصى ما فيهن من طاقة، ويأتين بأعمال خشنة مربكة. يلطمن خدودهن، يمزقن ثيابهن، أو يتوجعن بأصوات مبحوحة، الجو كله كان صعبًا على من كان مثلي، سِنُّه صغيرة وإدراكه قليل.

أعرف البكاء وكل يوم أراه وأسمعه، لكنه في هذا الوقت كان مختلفاً، فالموت فعلاً له نحيبه الخاص! لسن وحدهن اللائي كن على هذا النحو، البيت كله كأنما جاءته ضربة أفقدته توازنه، حتى العم حامد الجبار الشقي انكفأ على الجدة، وأتى بأفعال لا تصدر من غلام أو حتى طفل لا يعي!

***

لا زلت أتذكر الإحساس الذي انتابني هذا اليوم..

الرهبة..

فكأني أقف على حافة بئر ســحيقة، طِلَّسم من الطلاسم، فلم أرَ من قبل أحدًا يموت أمامي، لم أجرب هذا الشــيء الكبير، ولا كنت أعــرف معنى كلمة الموت ذاتها، ســمعت بها فقــط في الحكايات و(الحواديت).

الرهبة فقط..

فهي وحدها التي أمسكت برقبتي، فلم أشعر بحزن أو أحس بفقد ولا فراق، أو ورد على خاطري بتاتاً أن الموت عبرة وعظة..

جاءتني هذه المشاعر متأخرة، بعدها بسنوات كثيرة، بعد أن زاد الإدراك وعرفت الزمن، وأن كما للحاضر أناسه الذين نراهم ويروننا نكلمهم ويكلموننا، الماضي هو الآخر له أناسه ويعيشون فينا بقدر ما نعيش، فلهم حضورهم ولهم وجود وإن شئنا رأيناهم وكلمونا وكلمناهم..

في هذا اليوم، وقفت أنظر للعم حامد وهو ضائع أمام جدتي..

يكلمها وهي ميتة.. يسألها أن تعود.. أن تجيبه ولو بكلمة واحدة! وأول ما تشنجت يداه ورفعتا عنها الغطاء، تكتلت النسوة وحُلْن بينه وبينها.

روَّعني هذا الذي أراه، وانهمرت على رأسي التساؤلات:

فمن هذا الذي حط علينا؟

وإلى أين أخذها؟

هذا الزائر غير المرحب به..

الغامض الغادر الخفي، الذي يقتلنا دون أن نراه..

أين هو؟ معنا هنا؟ أم في حيز من هذه السماء يسكن ويعيش؟

لم أخَفْ، لا من قبل ولا من بعد، بقدر ما خفت هذا اليوم، لم يقشعر لي بدن سوى من هذا الذي ليس له خُلق ولا ضمير.

وتشعبت الأسئلة..

أسئلة ولا شك لها إجابات، لكن هل كان لطفل مثلي قدرة على استيعابها، كنت في التاسعة ووجدت نفسي بين دوائر مفرغة، أخرج من واحدة لأدخل في الثانية.

***

الجد هو الذي ظل متماسكًا..

طوال أيام العزاء، وهو يحرك حبات المسبحة بين أصابعه، ويسلم بثبات على من يدخل ويخرج من الناس..

لم ينكسر إلا بعد أن انفض كل شيء، وبدأنا في الانشغال بحياتنا. لزم مسكنه أيامًا لا يخرج منه، وكلما دخلوا عليه بالطعام أعاده كما هو.

حثني قلبي على السؤال عنه، فطفقت أتسلل إليه كل يوم بالمرتين والثلاثة وأقف على باب غرفته. يومئ لي فأتشجع داخلًا، غير أنه كان يلقاني بوجه مكتئب، ويظل واجمًا..

لم أكن أتكلم أنا الآخر، فلم أكن أعرف ماذا أقول..

أظل ساكتاً، وكلما رحت إليه بعيني أجده على نفس الحال، وإذا طال الصمت إلى ما فوق قدرتي كنت أدعه وأنصرف. وفي مرة من هذه المرات، بدا لي وكأن دمعاً يتكون على حواف عينيه، تأكد ظني بعدها لما انكفا على منديل في يده وانفجر في البكاء..

لم أتحمل..

انفجرت معه، بكيت لما بكى.. فلم أشاهده من قبل مهزومًا على هذا النحو، ولا دار في خاطري على الإطلاق أنه يعرف الألم ويتوسل إليه بالبكاء كالصغار أمثالنا!

كان يحبها..

لم تكن بنتًا من بنات البيوت الكبيرة، فلاحة من بيت بسيط،

التقاها صدفة وتعلق بها، حارب الدنيا من أجلها، أباه وأمه وكل من تربطه بنا صلة رحم.

يقولون له: لا تناسبنا، أهلها غير أهلنا.

فيقول: لا تناسبكم أنتم، لكنها تناسبني أنا.

وعندما تأخرت في الإنجاب، قالوا: انتهت حكايتها معه، إلا أنه دار بها على الأطباء حتى أتت له بأبي وثلاثة أعمام.

***

7

وبدأ الحِدَاد..

سنة والبيت كله يرتدي الأسود، ورغم أنه حداد إلا أن هناك أموراً لا تنتظر.

فبعد الأربعين تساءلت النسوة في الخفاء، عمن سوف يخلف الجدة؟ وعندما اقتربت السنة أرادت العناصر المؤثرة في البيت قطع دابر هذا الموضوع. لم تتحمل الانتظار، لها مخاوف وشكوك وتخشى أن يفاجئها الجد بزيجة ليست على الهوى!

اجتمعوا في غرفة الكتب الخاصة بالجد..

أمي وأبي وأعمامي الثلاثة، وكان أبي قد اقترح عليهم قبلها أن تكون الجلسة في بيتنا، غير أنه تراجع عندما حذرته أمي. خافت أن يتسرب الخبر للجد، ويعرف أن الكلام كله كان عندنا، وهذه غلطة لن يمررها لهما بسهولة.

الجد في هذا اليوم كان في مصر، فانتهزوا هم الفرصة وعقدوا اجتماعهم بعد أن اتخذوا بعض الاحتياطات. كلفوا وهيبة أولاً بمشوار لن تعود منه إلا بعد العصر، كي لا تعرف و(تخبُص) للجد، وكرشونا نحن الصغار من البيت لنفس السبب، أما الخادمات فساقتهن زوجة العم هلال أمامها، وشغلتهن بتنظيف شونة الدواب التي وراء البيت.

***

وبدأ الاجتماع..

أبي ولكونه الكبير، تعلقت أبصارهم به ليبدأ بالكلام، لكنه كان في وضع لا يحسد عليه، ولا يعرف ماذا يقول. تنحنح عدة مرات بلا سبب وشغل نفسه وشغلهم معه ببعض التفاهات، سيجارة يطفئها ويشعل غيرها، الجلباب الذي يرتديه العم سعيد، يبدي إعجابه بقماشته، ويسأله من أين اشتراها؟ وبعد أن يسمع الإجابة يهز رأسه عدة مرات، ثم يسأله بعدها عن محل (الأزهري) هذا الذي يقول إنه اشتراها منه، هل هو المحل القديم أم الفرع الجديد الذي فتحوه مؤخراً في شارع الخليج؟ ربع ساعة وهو على هذا الحال، وهم يستحثونه بعيونهم

كي يكف عن إضاعة الوقت ويدخل في الموضوع.

قالت لي أمي فيما بعد: أبوك (يا علي) كان كالفأر الذي وقع في المصيدة، وكما لو أنه أحس بأن هذه الجلسة سوف تودي به إلى التهلكة، وأنه يستحق الضرب بالحذاء لأنه سمع كلام إخوته وتجرجر وراءهم.

وتستأنف موضحة: ليس معنى هذا أنه لم يكن في صفهم، كان معهم، وقلقًا مثلهم، إلا أنه كان خائفًا من بطش الجد إذا عرف، وخوفه هو بالذات كان مضاعفا، فلأنه الكبير ظن أن الجد لن يمسك في رقبة أحد سواه.

أخيراً نطق، توكل على اللـه وقال:

- إنتوا طبعاً عارفين إن الجواز شرع ربنا، وربنا سبحانه وتعالى هو اللي قال كذا.. وكذا..

ويبرئ نفسه:

- مش أنا اللي بقول، كله متسجل ومذكور في كتاب ربنا.

ثم يرفع كفه في وجوههم مخليًا ذمته:

- يعني لا كلامي ولا كلام حد تاني، كلام نازل من السما.

ويحدق فيهم متربصًا لأي أحد يناقشه في هذه المُسلَّمة، وهم

يتماشون معه ويومئُون برؤوسهم، وهو على نفس الوتيرة يقول ويعيد ويزيد في هذه النقطة، حتى بدا الضجر على وجوههم، لكنهم تحملوا.

ويأخذ أنفاسه، ويعاود من جديد:

- وكمان كلكم عارفين وواعيين، للحديث اللي بيقول **"تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإني مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة"**.

فبدأ صبرهم في النفاد، وغمغم أحدهم بضيق:

- تناسلوا إيه! هو أبونا لسه هيتناسل ويجيب عيال!

وقال آخر:

- مقلناش حاجة في الحديث، وألف صلا عليك يا نبي، بس دا مش موضوعنا!

ومال العم الثالث على أمي متسائلاً: عما جرى لأبي؟ هل هو مريض والعياذ بالله..

وطالبوه بالدخول مباشرة في الموضوع، فنصف ساعة حتى الآن وهو (يلاوع) ويتهرب ولم يقل كلمة تبلل ريقهم، ولما حاصروه وشعر هو بأنه لا فائدة، (استبَيع) قائلاً:

- يعني بالعربي كده، لا أنا ولا انتم لنا كلمة في شرع ربنا، ولو

أبونا عايز يتجوز، خلاص يتجوز وألف مليون مبروك.

وأشاح بيده عاليًا:

- حقه يا ناس!

فنظروا لبعضهم البعض بإحباط، وقال له واحد منهم باستياء:

- خلاص خلاص، يتجوز يا سيدي ما دام إنت شايف كده.

ثم صمت لحظة وقال، وهو يركز بعينيه في عينَيْ أبي:

- طيب يا سيدنا الشيخ يا للي عمّال تقول قال الله وقال الرسول، إيه رأيك بقى لو كان أبونا عايز يجيب عيال، برضه يخلف ويجيب عيال؟

فتحاشاه أبي قائلًا:

- والله..

والعم يلاحقه:

- والله إيه؟

- يعني..

والعم يلح:

- يعني إيه؟

- يعني ربك عالم بالحال.

- يا سلام!

وكأن العم شعر بأن أبي لا يصلح لإدارة الجلسة، وكان هذا العم قليل الصبر وحلقومه ضيقًا، فهب واقفًا:

- أستأذن يا جماعة، ورايا مشوار..

غير أنهم تكاثروا عليه وأرغموه على الجلوس، وهو يقول بغضب وعيناه على أبي:

- وبتقولوا عليه الكبير!

وتوترت الجلسة، أخرج أبي علبة الدخان وأشعل سيجارته الثالثة، ونفسه تحدثه بأن هذا العم أخطأ معه، وأنه لو تمادى مرة ثانية سوف يلقنه درساً أمام الجميع. وساد الصمت، صمت ينقصه عود ثقاب يشتعل، وانشغل كل منهم بشيء في يده، بدوا وكأنهم يتحاشون بعضهم البعض، وأمي تريح رأسها على كفها وتتنقل ببصرها بينهم.

جاء الفرج على يد العم سعيد، تدخل ملطفًا الجو وحثهم على التركيز في الخطر المحدق بهم بدلاً من هذا الغضب والانفعال، ثم انبرى قائلاً:

- طب وقعدنا مع بعض ليه! قفلنا على نفسنا الباب وعيالنا كرشناها، ولولا وهيبة اللي بعتناها مشوار يا ترجع منه يا مترجعش، كل دا

كان ليه؟! إن متكلمناش دلوقتي، إمتى بقى هنتكلم؟ لما الفاس تقع في الراس، لما أبونا الشيطان يضحك عليه ويتورط في واحدة تبهدله!

فتجاوب معه العم حامد:

- قصدك..

- أيوه هو دا قصدي، لازم يشركنا معاه، وتكون لنا كلمة في الست اللي هيتجوزها.

وعندما أحس بنظرات التأييد، استمر قائلًا:

- أصل لو أبونا اتورط في واحدة كده وللا كده، مش هتيجي على راس حد تاني غيرنا، إحنا اللي رايحين جايين قدام الناس، وشوفوا بقى الغمز واللمز والكلام اللي من ورا القفا!

وأكد العم هلال على ما يقول:

- الناس! إنت هتقولّي على الناس، أعوذ بالله! مش هيرحمونا ولسنتهم والعياذ بالله زي السكاكين.

تشجع أبي هو الآخر، وانضم إلى القافلة:

- على قولكم، وهو إحنا عايزين له إيه، عايزين المصلحة! ومتضحكش عليه واحدة من إياهم.

***

ساعة وهم على هذا الحال، يلفون ويدورون دون أن يتطرقوا للُبّ المشكلة..

لم يشرعوا مباشرة في الأمر الذي يكتمونه في صدورهم، الخوف الذي يؤرقهم وبسببه عقدوا هذا الاجتماع. الأرض، البيوت، وابور الطحين، ومناحل العسل. كلها باسمه، ولم يوزعها عليهم بعد.

كبروا في السن، ومنهم من تجاوز الأربعين، كل واحد له ثلاثة أو أربعة عيال، ويريد أن يطمئن، لكن كيف؟ وهم منذ أن جلسوا هذه الجلسة لم يصلوا لأية نتيجة. كلام في كلام فقط، وكلما تقدموا خطوة رجعوا خطوتين، حتى أصابهم الإعياء فطفقوا يدخنون للمرة العاشرة والتجهم بادٍ على وجوههم.

أملاك الجد هي شغلهم الشاغل، وإن لم يكن وزعها عليهم ، فقد وزعوها هم على أنفسهم..

ليس بالصريح، مجرد كلام كانوا يقولونه لبعضهم البعض..

كلام قالوه على مدار سنين، من أول ما ظهرت بوادر الكبر على الجد وقل اهتمامه بالأرض.

كان يمر عليها كل يوم، يأتون له بركوبة يمتطيها ويلف عليها غيطاً بعد غيط، وأثناء عودته يطل على وابور الطحين ومناحل العسل. كانوا يحسبون ألف حساب لقدومه، يجرون إليه أول

ما يظهر على رأس الغيط، ويطوي هو الشمسية ويسلمها لأحد الخفراء ويمشي متمهلاً بين الزراعات.

يلف الأرض من الشرق إلى الغرب وبالطول والعرض مبدياً الملاحظات، ولا يتورع عن الزعيق وصوته يصل لمسافات لو شعر بأي إهمال.

روحه في الأرض، يحبها مثلما يحبنا، وإذا تفشت الدودة في أعواد القطن سنة من السنين أو خابت زرعة من الزراعات، كان الحزن يخيم عليه ولا نستطيع ساعتها الاقتراب منه. خمسون سنة والأرض عينه وعافيته، حتى أصابه التعب.

السن ومشاكل العُمُدية أثقلا عليه، فجمع أبي وأعمامي وقال لهم: الأرض واسعة والصحة لم تعد تساعد، وأنتم الآن رجالٌ فتولوا كل شيء وفي آخر كل سنة نتحاسب مع بعضنا البعض.

ألجمتهم الفرحة، تخشبوا أمامه غير مصدقين، وعيونهم وآذانهم تتابعه حرفاً بحرف، وهو يقول: أنت يا هلال تولى الأرض القبلية، وأنت يا سعيد الأرض البحرية، أما أنت يا محمود فتفرغ للأرض التي استصلحناها في الجبل، مشاكلها كثيرة وأمها وأبوها الصبر والنفس الطويل.

- وحامد؟

- حامد خلوه على جنب، لا له في الفلاحة ولا شيل الهم، يدوب يقعد على كرسي قدام وابور الطحين، يستلم الإيراد ويسلمهولي يدًا بيد.

***

قيل هذا الكلام منذ سنوات، من تسع أو عشر سنين، ويبدو أنهم فسروه على أنه بذرة تقسيم، وتعاملوا مع بعضهم البعض على هذا الأساس.

فما المانع في ظنهم؟!

هذه هي سُنَّة الحياة وهذا ما سوف يكون، وربما تصوروا أن هذا الذي أراده الجد بعد أن يموت، وضع لهم قسمة معقولة حتى لا يختلفوا فيما بينهم!

لم يستقروا على ذلك صراحة أو بورق مكتوب، فهموها هكذا وكبرت في رؤوسهم بالتدريج، وأصبح كل منهم يمضي كل نهار إلى ما اختصه به أبوه، وهو يحسب أنه أصبح خالصًا له!

فما الذي يفعلونه الآن، أليسوا في ورطة لم يحسبوا حسابًا لها؟!

***

8

كل الذي حدث على مدار سنين، يقلبونه في رؤوسهم الآن..

يشعرون بالتهديد، لو لا قدر اللـه فاجأتهم الأيام بوريث جديد! يودون حسم هذه المسألة، أن يتكلموا..

وحتى إن تكلموا، ماذا يقولون؟!

هل يقترحون على الجد أن يكتب لهم كل شيء (بيع وشراء)، أم يقولون له: إن رغبت في الزواج، فشرطنا ألا تأتي لنا بأولاد!

لن تُحل مشاكلهم إلا بهذه أو تلك، لكن من ينطق ويقول؟

ولا واحد جرؤ..

كل منهم ُفضل أن تجيء من غيره ويكون هو أحد المستمعين، وإن علق يعلق بكلمة لا تؤخذ عليه. فالجلسة اليوم جلسة موثقة وليست كلاماً في الهواء كالكلام القديم، الوضع اختلف وكل كلمة تقال الآن عليها بدلاً من الشاهد أربعة، شهود - ما شاء اللـه - كل واحد منهم له ذاكرة جاهزة للتسجيل، وليس بالكلمة فقط، بالحرف! حتى الذين في الحوش لن يطول عليهم الأمر، فإن لم يعرفوا اليوم سيعرفون غدًا، والأخطاء طبعًا واردة، فمن يضمن ألسنة الخادمات، أو زوجة عم تتسرع وتحكي لأهلها، فوصول الخبر للجد إذاً أمر محتمل، وساعتها قل عليهم السلام!

فليس أبي وحده الذي يهاب الجد، الكل يهابه من أصغر دجاجة في البيت إلى أكبر كبير، حضرة العمدة الذي لو شخط شخطة واحدة فى الناس ينفض أي عراك ولو كان بالعصي والسكاكين، فهل هذا الغول سوف يسمع منهم هذه الاقتراحات! يدخل معهم في مقايضة أو يقبل منهم اشتراطات، واللـه لو فعلها أحدهم لأكله أو رماه في عرض الطريق! السكوت وأن تكون في آخر الطابور، هو الأسلم في هذه الحالات.

آثروا السلامة..

غلبهم الخوف، ابتعدوا تماماً عن هذه المنطقة، طفقوا يثرثرون بكلام من هنا وهناك، الفول والفجل والبرسيم، شركة المحاريث

والهندسة التي فاجأتهم هذه السنة بأسعار جديدة للجرارات، وكلام آخر لا معنى له إلى أن أعادهم العم سعيد ثانية لنفس الموضوع، ألقى بالمشكلة في حجر أمي، طلب منها المشورة فيمن هي أنسب للجد لو عزم على الزواج؟

هي الأخرى لها حسابات..

زوجات الأعمام اجتمعن في السر هن الأخريات، وأمي تقريباً المتحدثه باسمهن.

لسن كالرجال، فلا الطين ولا المال هو الذي يشغلهن، كل الذي يهمهن أن تكون الزوجة الجديدة طيعة في أيديهن ولها مواصفات..

أن تكون كبيرة في السن أولًا حتى يحترمنها، وليتها عجوز لا تستطيع مبارحة مكانها، فسوف تسهل السيطرة عليها عندئذ واللعب بها، أما لو كانت صغيرة فحتمًا ستكون لها تطلعات، ثم كيف يتعاملن معها؟ هل يقلن لها: يا عمة أو يا خالة وهي في سنهن أو سن أخواتهن الصغيرات! وهل سيخدمنها ويطأطئن رؤوسهن لها، مثلما كن يفعلن مع الجدة المتوفاة؟! هي حماتهن بالشرع والدين، والثانية ليست سوى (عَيِّلة) قعدت مكانها.

والشرط الثاني، وهو الأهم في نظرهن، ألا يكون لها حضورٌ ولا شخصية، تافهة، لا تهش ولا تنش أو عبيطة لو أمكن، حتى

لا يدخلن معها في صراعات، ويظل البيت على نفس الوتيرة، أمي هي الملكة وزوجات الأعمام هن الوصيفات، بالمختصر المفيد يردن خيال مآتة أو صفرًا على الشمال!

***

يهرب أبي وأعمامي من فشلهم، ويضغطون على أمي لتقول أي اسم. وعندما تقول، يرمقها العم سعيد باستعجاب:

- بهانة! بتقولي بهانة؟!

ويدور ببصره بين الجالسين:

- أعوذ بالله، بهانة أم شلف! دي ولية خايبة، يا شيخة حرام عليكي!

ويضيف أبي:

- دا حتى الكلب ميرضاش بيها! ومين يا ترى بقى اللي هيفاتح أبويا ويقوله عليها، دا كان نزل على راسه بالمداس.

فتلاعبهم بالورقة الثانية:

- بلاها بهانة، إيه رأيكم في زينات بنت الشوكي؟ غلبانه و...

ولا تستطيع التكملة، يقاطعها أبي بانفعال:

- زينات! يا سنة زي بعضها، زينات اللي بتلبس الجزمة كل فردة شكل!

وكأنه غير مصدق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنتي بتجيبي البلاوي دى منين؟! دول أعبط ستات في البلد..

ويظن العم حامد، أن المسألة ليست في حاجة لكل هذا:

- يا ناس دا عدى السبعين، يعني ملوش...

ويرمق أمي خجلا، دون أن يكمل عبارته.

فيتدخل العم سعيد:

- وإيش فهمك إنت، دا الراجل يفضل يخلف لحد ما يموت.

ويشيح أبي بيده ساخراً:

- يعني لو اتجوز واحدة فيها الرمق، أبشروا بمولود.

ثم يلحقه العم هلال:

- وإيش دَرَّاك إنه مولود واحد، يمكن كل سنة يفاجئنا بمولود!

ويقترح هو أحد الأسماء، ويقول باطمئنان:

- آهى محترمة وبنت ناس، وفوق من دا كله أرملة وعدت الخمسين، يعني لا بتخلف ولا بتبيض!

فتثور أمي عليه:

- يبقى انت عايزها حريقة في البيت!

وتقوم غاضبة:

- لواحظ بنت المرزوقي! لواحظ القادرة أم لسانين! واللـه لو دخلت علينا لنا اللي سايبه البيت.

وتأخذهم الحيرة، فيرجئون الأمر لجلسة ثانية.

***

9

كنت في العاشرة، عندما تزوج الجد..

امرأة بطرحة بيضاء وثوب بسـيط، دخلـت علينا ذات صباح في موكب كله نسـوة كبيرات في السن. لم يكن أحد من الرجال في البيـت، كلهم في الغيطان، والجد في جلسـة صلح لم يعد منها إلا آخر النهار.

نعرف أنهـا قادمة، وفتحنا لها الباب الحديد من قبلها بسـاعة، ودخلـت هي بكل أدب. لا طبلة ولا زفـة ولا صبايا تغني حولها، ولا أي شيء من الأشياء التي تصاحب الأفراح، فهذه تعليمات الجد لأهلها، وبتوجيهات من أمي اسـتقبلتهن زوجة العم هلال وأخذتهن مباشرة إلى مسكن الجد.

البيت في هذا اليوم لم يكن في حالته الطبيعية، نسوته كلهن أحطن بأمي والجو كله توتر وانفعال! حتى نحن الصغار تأثرنا بردود أفعال أمهاتنا، تهور ولد منا وكاد أن يلقي بحجر على هؤلاء الداخلين لولا أن أمه أمسكت بيده، وبتلقائية ووفقًا لعادات الأفراح همت إحدى الخادمات بإطلاق زغرودة، إلا أن أمي كتمتها في فمها:

- اخرسي يا قليلة الأدب!

كما نالت لكزة في جنبها، من زوجة العم سعيد:

- إنتي خايبة يا بت! فاكراها عروسة بجد! يا تقفي زي الناس يا على بره وتفارقينا.

***

استقبالنا لزوجة الجد لم يكن فاتراً فقط، بل كنا في مأتم لا عرس..

وهي ربع ساعة وخرجت زوجة العم هلال من مسكن الجد، ومعها العجائز اللائي قدمن بزوجته.

الأصول تقول: لا بد من كوب من الشربات، وأن يرتحن ولو دقيقة. لكن أمي لم تعرف الأصول في هذا اليوم، وقفت صامتة ووجهها يابس كقطعه الخشب، فتوجهت إليها أكبر هؤلاء النسوة، سلمت عليها باحترام وأوصتها (بأم إجلال) زوجة الجد. خالتها.

وتعرف قدر أمي حـق المعرفة، ليس لأنها من عائلة كبيرة قياسًا على عائلة أم إجلال، وإنما لشهرتها بين نسوة البلد بأن لها مكانة وسطوة في البيت.

كانت تحاول استمالتها بأي طريق، فبنت أختها حتى ولو هي زوجة الجد ستكون غريبة بيننا، وقد ينكدن عليها ويُحِلْن حياتها إلى جحيم، فالخالة امرأة مثلهن وتفهم هذه المسائل، وأن (كيد النسا) لو بدأ، قل: يا رحمن يا رحيم على أم إجلال! منظرها كان لافتاً وهي تتعامل مع أمي وزوجات الأعمام، بدت وكأنها (تشحت) منهن الأمن والسلامة لبنت أختها..

***

لم تطأ أم إجلال الحوش لمدة أسبوع..

وكل صباح تدخل عليها إحدى الخادمات بصينية الإفطار، تنقر على الباب الخشب فيخرج لها الجد ويحملها بين يديه، أما الصينية الأهم فهي صينية الغداء، وهو أيضًا الذي يتسلمها بيده. أكبر صينية في البيت، صينية الضيوف الأغراب الذين يأتون من البلاد المجاورة، وكان يوضع فوقها كل الأصناف التي يشتهيها الجد، حمام، بط، لحم مسلوق، أرز، صنف أو صنفان من الخضار، غير شمامة أو بطيخة مرشوق في قلبها سكين، أو عناقيد عنب في صحن كبير.

أمي بحكم وضعها هي التي تشرف على ترتيبها، ترص الطعام بنفسها وتتأكد من كل شيء خوفًا من أن يمسك الجد عليها أيه غلطة، غير أنها كانت تفعل ذلك بغير (نِفس)، وفي سرها تظل تلعن الزمن الذي جعلها تخدم واحدة ليس لها أصل ولا فصل.

أحيانًا يكون أبي موجودًا، يُبدي هو الآخر بعض الملاحظات، لكن أهم شيء كان يثير دهشته ذلك الكَمُّ الرهيب من الطعام.

يشيح متسائلًا:

- كل دا أكل! دا يكفي عشر رجالة.

فتجيبه أمي بابتسام:

- ويا ريت الصنية بيرجع عليها فتفوتة أكل، دي بتتمسح مسح!

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ! هي وللا هو؟

- ادخل اسألهم.

يبتسم هو الآخر، ويدعها وينصرف.

وعندما ترجع إليهن الخادمة، كن يمسكن برقبتها ولا يتوقفن عن الأسئلة: هل رأيتيها؟ هل ترتدي جلابيب محترمة مثلنا، أم قمصان نوم شفافة وأشياء عارية من التي...

ولا يكملن العبارة..

فتقول لهن: لم أرها، أو حتى لمحت طيفها.

وعندما تشدها إحداهن من أذنها، تهبط برأسها متألمة وهي تقول: والله حاولت! عملت نفسي عبيطة ولم أسلم الصينية لحضرة العمدة مثل كل مرة، قلت له: الشوربة ساخنة وقد تلسع يديك، وقبل أن يجيب دخلت بها فورًا إلى أم إجــلال، غير أنه جذبني من الطرحة وكاد أن يلطمني بيده.

كل يوم وهن على هذا الحال، يسألن الخادمة نفس الأسئلة ويتلقين نفس الإجابات، لكن الذي أعجبهن أن زوجه الجد كانت تعيد لهن الأطباق نظيفة ومغسوله غسلة جيدة.

فتقول زوجة العم هلال:

- بتسحب ناعم.

وتعقب زوجة العم سعيد:

- عايزه تعيش.

- وتهز أمي رأسها:

- آدينا هنشوف.

***

لم يقتصر القلق عليهن فقط، أنا الآخر كنت قلقًا، وأسأل أمي: إن كنت أستطيع الدخول لمسكن الجد مثلما كنت أفعل من قبل؟

فتجيب بانفعال، وكأنها غاضبة من السؤال:

- يعني إيه تدخل! ادخل واخرج زي ما انت عايز.

وتضيف بضجر:

- أهو دا اللي ناقص، البيت بيت أبونا وييجوا الغرب يطردونا!

والذي عرفته فيما بعد، أن الجلسات التي كانوا يعقدونها باءت كلها بالفشل، بل فوجئوا بأنهم ليسوا وحدهم الذين يخططون، الجد هو الآخر كان يخطط من ورائهم. اتفق مع خال أم إجلال على كل التفاصيل دون أن يشعروا، وقبل (كتب الكتاب) بيوم واحد جمع أولاده وأبلغهم بما عزم عليه، وعندما ذهب لم يأخذ معه سوى أبي.

قال أبي بعد أن رجع: كنت كخيال المآتة بالضبط!

ويضيف ساخرًا: ربما خيال المآتة له فائدة، أما أنا فلم يكن لي وزن ولا طعم! لم أنطق بحرف، كل الذي فعلته أني شربت كوبًا من الشربات.

ثم يبتسم: المدهش أننا بعد أن خرجنا أنا وأبي من بيت هذا الخال، انتحى بي وسألني: ما رأيك في أم إجلال؟ أجبني بصراحة! هل تناسبكم أم لكم رأيٌ آخر؟

ويكاد يضحك وهــو يكمل لأمي: باللــه عليكِ ما الــذي كنــت أقوله له!

وتسأله أمي عن أهل العروس، فيشيح بغير اهتمام:

- ناس غلابة! كلهم أُجَريَّة واللي عنده أرض منهم يدوب كام قيراط، خالها هو اللي ماسك نفسه شوية، عنده دكان وشغال في العدس والرز والفول، ما انتي عارفاه! دكان أبو شخلول اللي قبلي البلد.

فتقول له بضيق:

- يا وقعة زي بعضها، بقى يناسب أبو شخلول.

وتضيف باندهاش:

- وعرفها إزاي؟

- العلم عند اللــه.

***

لــم تكتفِ أمي بهذه الإجابات، أرســلت بمن يأتيها بالحكاية من جذورها..

فأم إجلال هذه بعد أن مات زوجها أصبحت معدمة، بيتها نفسه كان مرهوناً ضماناً لدين اقترضه الزوج قبل أن يموت، وهددوها

بالدفع أو تسليمهم البيت، فجاءت لحضرة العمدة.

لم تُحل المشكلة إلا بعد أن تبرع هو بنصف الدين، والنصف الآخر تحمله الخال، ثم تطورت الأمور ووقع الزواج، فهل رأف بحالها وأراد انتشالها من الضياع، أم أنها أعجبته؟!

تحكي أمي لأبي، وهو يهز رأسه مستعجبًا:

- يا سبحان اللـه! كل دا وإحنا ولا هنا.

ويضحك ضحكة عالية:

- قال وإيه! الخايب هلال لســـه قايلّي مفيش أســـبوع، إن أبويا خـــلاص صرف نظر عن الجواز، أقـــول له: وعرفت إزاي؟ يقوم يتعوج بسلامته ويقول: هو إنت فاكرني نايم وللا إيه! أنا ممَشّي وراه ناس، ولو عطس أو حتى كح بيجيني الخبر على طول.

ويسألها إن كانت أم إجلال تستطيع الإنجاب، فتقول:

- إن كان على الخلف تخلف ونص، الرَّكّ على أبوك.

***

10

بعد أذان العصر، كانت وفود النسوة تأتي للزيارة..

يفـــردن لهن الحصير، ويضعن المســـاند لمن تتكئ عليها بيدها أو تضعها وراء ظهرها، وإن كنـــا في الشتاء تستقبلهن أمي بغرفة الجلوس.

كلهن من بيوت كبيرة، ويأتين بالقمصان المَلس وطُرح سوداء معصوبة حول الرأس، وعليهن كميات من الذهب، خواتم وأساور وخلاخيل تمسك بكاحل القدم..

كل منهن تأتي برفقة صبي، غالبًا ما يكون ابنها أو أحد الخدم،

يصحبها حتى بابنا الخارجي ويدق عليه، وأول ما نظهر له يدعها وينصرف.

يدور عليهن الشاي في أكواب صغيرة، ويبدأن في الحديث..

يأتين بالبلدة من شرقها لغربها، من باع ومن اشترى، ومن في خصام مع زوجته أو أكل حق إخوته في الميراث، فلم يكن الحديث يبعد كثيرًا عن هذه المواضيع. جلسة نميمة بامتياز، وكل شيء فيها مباح حتى الأحاديث الساخنة، كنت أجلس إلى جوارهن أحيانًا وهذه الأحاديث تقال، فيقطعن الكلام وينظرن لبعضهن البعض، فتنتبه أمي وتصرفني بعيداً.

بعد أذان المغرب، يبدأن في المغادرة..

نسمع طرقاً، فيلتفتن برؤوسهن نحو الباب وتلمح إحداهن ابنها، فتضع قدميها في الشبشب أو الحذاء وهي تقول:

- دا ابني عبد السلام.

ووراءها الثانية:

- وأنا ابني حسين، آهو راخر جه.

ويلملمن ثيابهن، ويخرجن مسرعات. وقد يأتي أبي فجأة والجلسة في عزها، يرمقهن بنظرة خاطفة ويخفض رأسه بأدب متجهاً إلى غرفته، فيحاولن الاستئذان إلا أن أمي تقول لهن:

- ما لسه بدري.

تقولها بكسل، ويبقين هن غير آبهات بوصول أبي، لا يحدث الارتباك إلا إذا حضر الجد، يبدو القلق على وجه أمي ويخرجن هن مسرعات.

***

ازدادت الزيارات بعد أن تزوج..

أصبحن يأتين كل يوم ويُطِلن في الجلوس، كن مصممات على رؤية أم إجلال وهي لا تخرج لهن، منعها الجد من لقاء أحد خاصة نسوة بعد العصر..

يعرف أنهن ملعونات، يردن فرزها قطعة قطعة، شكلها، ثيابها، كَفَّاها ناعمتان أم عليهما سواد وقشف، وهل لها حلي مثلهن؟ وإن كان فهل هي ذهب بحق أم أشياء مضروبة؟ ثم ينشرن هذه الأخبار في البيوت.

هن متأكدات أن أمي غير مرتاحة لهذه الزيجة، وأن حربًا في بيتنا على وشك أن تقع! فيغلبهن الفضول غير أنهن لا يدخلن لأمي مباشرة، ترمي إحداهن بكلمة في الهواء وتسكت، فتفهم أمي وتأخذها لسكة ثانية. لا ترغب في الخوض في أم إجلال احترامًا للجد، أو ربما تخشى أن ما تقوله قد يلف ويدور ويصل إليه.

يصبح الكلام بينها وبين ضيفاتها أشبه بالمناورة، وإن نطقت إحداهن بكلمة على المكشوف في حق أم إجلال كانت تقول لها بأدب:

- خلينا هنا يا امُّ فؤاد.

وإن ألحت تهاودها قائلة:

- الست في حالها، ومحدش مننا شاف منها حاجة.

- إنتي اللي على نياتك يامُّ علي.

وتنبهها إمرأة ثانية:

- بس واجب تحرَّصي.

***

بعد أن يخرجن، كانت الوساوس تنهش عظامها..

وتسأل نفسها: ما الذي في رأسك يا أم إجلال؟ هل تفكرين مثلًا في أن يكون هذا البيت الطويل العريض تحت إمرتك!

أتوارى أنا، وكل شيء يصبح في يدك!

احلمي كما تشائين، لكن هل تستطيعين!

لا. لن تستطيعي، فسوف أضع أنفك في التراب، لو مشيتي خطوة واحدة في هذا الطريق.

لم تطل ساعة الحسم..

ففي أحد الصباحات والنسوة يجلسن في الحوش، سمعن صرير الباب الخشب فعرفـن أنها هي..

اسـتقبلنها بابتسامة كاذبة، وعندما نادين عليها لتجلس معهن لم تتزحزح أمي بوصة واحدة، أجلسنها على الحرف، وكان هذا أول درس لها في البروتوكول!

الربع ساعة الأولى التي أعقبت جلوسها كانت فاترة، تسأل السؤال فيجبنها بكلمة واحدة وأحيانًا بهمهمات، وعند تقديم الشاي يبدأن بأمي أولاً، ثم زوجات الأعمام وهي من بينهن، وكان هذا تأكيداً لنفس الدرس، فأمي أولاً ثم هي بعدها..

وعندما حان أوان تجهيز الغداء، قالت أمي لإحدى الخادمات: الأكل اليوم كذا وكذا.

فانسحبت أم إجلال من لسانها:

- أنا بقول حمام، دا هارون بيموت فيه.

وكأن أمي لا تصدق ما سمعته، استدارت لها ووجهها ساخن ككتلة اللهب:

- هارون! هارون كده حاف!

وترفع إصبعها محذرة:

- إوعي أسمعك تنطقي الاسم ده تاني قدامنا، اسمه حضرة العمدة، عايزه تقوليه يا شاطرة تقوليه في أوضة النوم!

مع أمي بعض الحق..

فاسم الجد لم يكن متداولًا بيننا، غريب علينا لو سمعناه، ولا حتى كان يناديه به أحد في البلدة، لا يقال إلا حضرة العمدة أو أبا الحاج..

ولعل الذي أثار أمي، أنها شعرت بأن أم إجلال تلعب بورقة رخيصة، وكأنها تقول لهن إنها أقرب للجد منهن، وطوال الليل هي في حضنه وهو في حضنها..

كان غضب أمي شديدًا يومها، لم تكتفِ بما قالته، ربتَّت على ركبة أم إجلال بغيظ وهي تقول:

- واسمعي يا بنت الناس، أنا هنا اللي أقول ناكل إيه ونشرب إيه، من زمن وإحنا على كده.

وتنظر إلى زوجات الأعمام، فيومئن برؤوسهن مؤكدات كلامها، فتعاود من جديد:

- وإن كان على أبويا الحاج، أنا أكتر واحدة عارفة إيه اللي بيحبه وإيه اللي مبيحبوش، ولما أقول كذا وكذا يبقى هو دا الغدا، وأي كلمة زيادة صاحبها هيخسر كتير.

وكان هذا هو الدرس الثاني، أن تفهم الأصول وأين تقول (هارون) ومتى تقول حضرة العمدة، وألا تتدخل فيما يخص غيرها، فلا كلمة لها في الطبيخ ولا أي شأن من شئون البيت.

ويبدو أن أمي لم يكن لها صبر على تعليمها بهذه الطريقة، طريقة الصواب والخطأ والفهم الذي يعقب التجربة. أرادت اختصار الوقت وإفهامها بأسلوب صريح، تسمعه وتعقله وتنفذه بالحرف، وانتدبت لهذه المهمة زوجة العم سعيد. وفي جلسة واحدة وبلطف وهدوء وبلا ألفاظ جارحة، تم إفهامها أن كفة الميزان ليست في صفها، فهي واحدة وهن أربعة، كما أنها الزوجة الثانية أو قطعة غيار لو حسبناها الحساب الصح! فلا هي أم الرجال ولا جدة الأحفاد، حتى تسند ظهرها إلى المخدات وتأمر وتنهي في البيت. وأفضل نصيحة تقدم لها أن تعرف حدودها، وتضع في رأسها أن أمي هي وحدها ست البيت، وإذا أرادت أن تكمل معهن حياتها في سلام وهدوء عليها السير في ركابها، أما إن لعب بها الشيطان وأفهمها غير ذلك فسوف تخسر خسارة كبيرة، فهي في نعمة لم تكن تحلم بها، بالأمس كانت تبيع الخيار واللفت والجرجير وتناكف الناس ويناكفونها، واليوم هي على فراش العمدة وتأكل الحمام والإوز والبط، فهذا هو كلام العقل والمصلحة إن اقتنعت به كان بها، وإن لم تقتنع فلا تلومن إلا نفسها.

أما السطر الأخير وعليها أن تعيه وتحفظه، أنها لو اشتكت للجد أو نطقت بحرف واحد من هذا الكلام الذي قيل لها، فأيامها معهن سوف تكون أسود من قرن الخروب!

***

11

ساعة وأنا أهيم في الأحداث القديمة..

في أطيافها التي كانت شخوصًا يومًا ما، والدنيا التي عاشوها، حتى أشياؤهم الصغيرة لم تفارق الذاكرة..

المِسْبَحة التي كان الجد يحرك حباتها للتسبيح مرة، ولمجرد العادة والتسلية مرات. وحلي أمي ومصاغها، فطالما تأملتها في أواخر أيامها وعيناها تقولان: من يا ترى بعدها، التي سوف تتزين بهذا الخاتم أو هذه الأساور؟! والعباءة التي اشتراها أبي ولم يفرح بها، مات وتركها بلا صاحب..

راحوا وراحت أشياؤهم، لم يتبقَّ من آثارهم سوى صندوق الجد..

الصندوق الخشبي الصغير، الذي رجوت أعمامي أن يدعوه لي قبل أن أرحل عنهم، من زمن لم أقربه، أفتحه متشوقاً لما فيه.

ظرف حكومي قديم، يحوي خطابًا للجد بخصوص اجتماعات لجنة العمد والمشايخ، والمواعيد: السبت الأول من كل شهر من أشهر سنة 1952، فلم يكن الجد عمدة (والسلام)، كانت له حيثية بين سائر عمد المركز، وينوب عنهم في هذه الاجتماعات.

خطاب آخر أسبق من الأول بعدة سنوات، حروف الآلة الكاتبة فيه مطموسة بعض الشيء، لكنه يُقرأ..

الراسل: مأمور المركز، وواضح أنه خطاب شكر وتقدير، فبعد الديباجة المعتادة والثناء على مليكنا المعظم (فاروق الأول) ملك مصر والسودان، وصاحب الدولة (النقراشي باشا) يشيدون بتفاني الجد في الحفاظ على الأمن العام، والصحة والسكينة -هكذا مكتوب- فعلى مدار أربع سنوات لم تقع جناية واحدة في زمام البلدة، أو تخلف أحد الأهالي عن قيد أولاده بالمدرسة الأولية، أو تطعيمهم بالتطعيمات الإجبارية.

أمضي سريعًا على ما تبقى من الأوراق، وأعيدها إلى حيث كانت متأملاً ظرف الصور..

عشر صور، وكلها باهتة وحالتها مزرية من عبث الأيادي التي تداولتها عبر السنين، فضلًا عن أنها صور طاعنة في السن، فأصغر واحدة فيها عمرها ستون سنة على الأقل.

العَمَّان هلال وسعيد وهما في سن السابعة والثامنة، أحدهما بصندل في قدميه والثاني يبدو عبيطاً في الصورة. لم أميز هذا من ذاك، الاثنان بنفس الشكل، والجد يتكئ إلى حوض الساقية وفي حجره ولد صغير، أظنه العم حامد.

الساقية لا تزال تعمل إلى الآن بأرضنا القبلية، البشر هم الذين بادوا! قضوا كلهم! العم حامد هو الوحيد الذي في قيد الحياة، لكن بأي شكل!

أهلكه الزمن ولم يعد يخرج من بيته، ويقولون: إنه مرة يكون موزونًا وعاقلًا ومرات يهذي ويتحدث مع أناس لا وجود لهم! وأحفاده الصغار يعجزون عن كتم ضحكاتهم كلما شطح أمامهم وخرف في الكلام!

باقي الصور لأناس لا أعرفهم، أقارب وأصحاب للجد ماتوا كلهم قبل أن أولد.

صورة وحيدة بها نسوة، جدتي المتوفاة ترفع يديها بالدعاء، وإلى جوارها الحاجة (فردوس) والاثنتان بملابس الإحرام، وخلف الصورة مكتوب بالقلم الكوبيا: الحجاز، دون ذكر للتاريخ.

الحاجة فردوس! يا سبحان اللـه! قطعًا ماتت..

وألوم نفسي، فلم أتقصَّ خبرها منذ أن تركتنا بعد أربعين الجد. حاولوا معها كثيراً، إلا أنها أبت الرجوع.

المفروض أنها خادمة، غير أن وضعها كان أكبر من ذلك بمراحل، من عمر الجد وربما أكبر منه بسنوات، ومنذ أن كانت صبية وهي في البيت، تعرفه بالشبر هو وكل الأسرار التي فيه.

كيف أنساها هي والحزام العريض الذي كانت تلفه حول خصرها، وتتدلى منه كل مفاتيح البيت، مفتاح الباب الخشب وغرفة الخزين ومفتاح الباب الحديد الذي كنا ندخل ونخرج منه. تأتي أول الصباح وتتسلمها من أمي، وتتركها لها قبل المغرب وهي عائدة إلي بيتها.

كنا نحترمها، الصغار قبـل الكبار، فهي التي أرضعت آباءنا وحملتهم على أكتافها، الجد ذاته كان يعمل ألف حساب لزعلها، وهي الوحيدة التي كانت تجادله وترد عليه.

أخطأ أحد الأعمام مرة في حقها، ولما عرف الجد شده من كُمِّ الجلباب إلى الداخل، وسمعناه يصيح فيه: يا مغفل يا غشيم خالتك فردوس ليست خادمة، واحدة منا، أنسيت يا جاحد يا لئيم أنك طفحت اللبن من ثديها مئات المرات!

***

قبل أن أغلق الصندوق تشدني آخر صورة..

الجد وشقيقه عبداللطيف معًا..

جدي بجلباب فاتح ورأسه عارٍ، وهو بردائه الأزهري ومزهوًا بالسيجارة التي بين أصابعه. كانا في شرخ الشباب وقتها، ويقفان أمام لوكاندة (الكلوب العصري) بسيدنا الحسين.

لا إشارة ولا اسم يدل على اللوكاندة، لكني أعرفها مثلما أعرف كف يدي وبِتُّ فيها ليال كثيرة، فعلى مدار ثلاثة أجيال لم نكن ننزل إلا بها. حتى الرجل الذي يقف وراءهما في الصورة أعرفه هو الآخر، أعرفه هو وسَبَت السميط الذي فوق رأسه، العم مرزوق! تعاملت معه وأكلت من يده عشرات المرات.

أتأمل وجه الجد عبداللطيف، وأنا أغالب الابتسام..

إنسان مدهش، مدهش بالفعل وليس مجرد كلام..

هيئته وحدها تدخلك في جو مفرح، قامته قصيرة بشكل ملحوظ، فزرعمامته في الصورة يصل لكتف الجد بالكاد، ووزنه وزن الريشة، خمسة وخمسون كيلوجرامًا، لا. لا. أقل من ذلك بكيلو أو اثنين! ولم يكن يخلع الجُبَّة ولا القفطان مطلقًا، وسواء أكنا في الحر أم البرد وفي الليل أم النهار، حتى إني رأيته مرة بجلباب النوم فتشوش رأسي عدة لحظات ولم أعرفه على الفور، أما لسانه فلا أعرف من أين أتى

به، كرباج! وصوته إذا ارتفع يملأ الأفق، لا يتناسب بتاتًا مع جسده الدقيق، ناهيك عن أفعاله التي تقل المقدار وتثير البلبلة.

وطبعاً كان له جمهورٌ ومشجعون، وأولهم أنا..

كنا نمشي حوله في الطرقات ونحن في قمة الانبساط، وأحيانًا تلتهب أكفنا بالتصفيق، وإذا تحرش بأحد أو أصابه بسوء كنا نعتذر له نيابة عنه، وإذا لم يقبل منا وأراد محاسبة الجد عبداللطيف ذاته، كنا نتعارك معه نيابة عنه.

في أول انضمامي لزمرة الجد عبداللطيف كنت محرجًا، فهو في الأول والآخر أحد الأجداد وكنت أشعر بالخجل مما يقوله ويفعله، لكن جرفتني المتعة وانسقت وراءه. كنا بالعشرات ومن كل عائلات البلد، صحيح أكثرنا صبية وشباب، لكن كان فينا كبارٌ في السن مِمَّن كانوا مقتنعين بالجد عبداللطيف!

يقولون إن الجد هو الذي كان يحميه من غضب الناس، لكن هذه مبالغات أو لنقل ربع الحقيقة، فنحن (الأولتراس) الخاص به الذين كنا نذود عنه، ونصيب ونصاب ولا يصله أذى، كما لو أنه الهداف ونحن جمهوره الذي يملأ المدرجات!

***

12

الجد عبداللطيف..

لم أنتبه لوجوده في حياتنا، إلا في اليوم الذي جرى وراءه الجد بالخيزرانة..

أسمع من قبل أنه رجل دين، وعرفت هذا اليوم فقط أنه ليس أي رجل دين، ليس واحدًا ممن كل ذخيرتهم جزء (عَم)، وخُطَب محفوظة (صم) يرددونها كل صلاة جمعة قبل أن يؤمُّوا الناس. لم يكن من هذا النوع، بل رجل دين عن جدارة واستحقاق، درس بالأزهر الشريف وتخرج منه بتقدير مرتفع.

أما جدي فكان على دراية واسعة بالحياة، حصل على الابتدائية القديمة وتأتيه جريدتا الأهرام والمصري كل صباح. أبي وأعمامي كانوا جهلاء، لم يفلحوا في المدارس لكنهم يقرءون ويكتبون، وفي مجال الأرقام والحساب بالذات لا نظير لهم، يحلون أعقد حسبة من حسابات الغيط بدورة سريعة في رؤوسهم، ودون حاجة لجدول الضرب أو عد على الأصابع.

***

في هذا اليوم الذي أتكلم عنه، كان الوقت ساعتها وقت الضحى، وهو الوقت الذي ترتاح النسوة فيه..

فرغن من شطر كبير من الأعمال، ويردن الشاي من يد الحاجة فردوس. يفردن الحصير ويجلســن، وتكون هي استعدت وأمامها وابور الجاز وعدة الشاي. وكنت أنا بالقرب منهن، ودرت برأسي مثلهن نحو الباب الخارجي، عندما ســمعنا من يطرق عليه بشــدة طرقات لا تنقطع.

قالت الحاجة فردوس:

- يا ساتر يا رب! اللهم اجعله خير.

وعقبت أمي:

- أحلف على مصحف إنه الشيخ عبداللطيف، هو دا تخبيطه!

هو بالفعل، ورأيناه يدخل علينا متبخترًا. منذ شهر لم تطأ قدماه عتبة البيت، وجاء اليوم للشجار.

أوقعنا كلنا في ارتباك..

لمت أمي ساقيها واعتدلت متحفزة، وزوجة العم سعيد كانت خارجة من غرفة الخزين، وأول ما رأته تسمرت في مكانها، أما باقي النسوة فما بين التوجس والحذر، ولمحت زوجة العم هلال تمد يدها لزلطة فوق الأرض، فعلى ما أعتقد كانت تخطط لإلقائها عليه إذا تجاوز معهن، ووقف هو في منتصف الحوش يصيح فينا:

- إنتوا يا غجر ياللي قاعدين!

وكانت هذه هي البداية، استأنف بعدها مشوحًا بيده:

- إنتي يا حلوفة منِك لها، يا نسوان ياللي ملكوش لزمة في الحياة! وكمان بتشربوا شاي وآخر انبساط، يا صلاة النبي!

إلى هنا ولا مشكلة، هو الشيخ عبداللطيف ولا يخرج من فمه إلا هذا الكلام، مررن له ما قال وسكتن، لم يتكهرب الجو إلا عندما بدأ زعيقه يدخل سكة ثانية:

- هو فين أُسّ الفساد، الشايب العايب اللي لا بيستحي ولا يعرف الأصول!

ففهمن أنه يقصد الجد، وأن اليوم لن يفوت. ضربت أمي بيدها

على صدرها وهي تستعيذ بالله، وتصرفت الحاجة فردوس، قامت إليه بعود في يدها:

- اسكت. اسكت. عيب!

غير أنه استمر:

- يتجوز بعد ما عَدَّى السبعين، قلنا: آمين! إنما يروح يجيب لنا واحدة جوزها الأولاني كان حلاق حمير!

لم تتحمل الخادمات، تبادلن نظرات خاطفة، فالمعلومة التي أتى بها الجد عبداللطيف الآن جديدة عليهن، طفقن يتساءلن بعيونهن مع ضحك مكتوم ولمسات سريعة في الركب، عما إذا كان زوج الست أم إجلال كان يمارس هذه المهنة فعلاً قبل أن يموت؟! غير أن أمي قطعت عليهن الطريق، أخرستهن بغضب:

- بقولك إيه منك لها، كل واحده تتلفت لنفسها وإلا هخلّي حضرة العمدة يولع فيكوا بجاز.

والجد عبداللطيف لا يكف:

- هو فين! دخلوني عليه.

لم يوقفه إلا ديكٌ من ديوكنا الرومية، ديك طباعه سيئة ولا يطيق أي غريب، قوقأ في وجهه عدة مرات ومد منقاره إلى الأمام متخذًا وضع الهجوم، فأسرع هو إلى الجد من الباب الخشب.

والحاجة فردوس ضاحكة:

- آهو على كده، لسان طويل وفرخة تجريه.

وأمي وراءها:

- راجل ملحوس وعيشته فشل في فشل.

- دا غلبان، معاه شهادات قد كده ويا عيني لا اتوظف ولا حتى زرع أرض، حتى مراته هي كمان حالها حال وصاحبة مرض!

وتضيف بنبرة حنونة:

- والنبي غلبان، أنا اللي عارفة أحواله.

***

يبدو أن الجلسة اليوم على شرف الجد عبداللطيف..

انفتحت شهية الخادمات بالذات عليه، ويردن سماع حكايته مع (أم زكي الداية) على وجه التحديد. سمعنها عشرات المرات من الحاجة فردوس ومن غيرها، ويردن سماعها من جديد.

ويرمقن أمي بحذر، فالحكايات التي مثل هذه لا تقال هكذا على المكشوف إلا إذا وافقت كبيرة البيت، فما يقال أو لا يقال من حقها وحدها.

وينتظرن الإذن، ونظرات الاستعطاف على وجوههن.

وهي حائرة..

لا تود أن تخيب رجاءهن، لكن الحكاية نفسها تُشعرها بالحرج، من أولها لآخرها قليلة الأدب! ثم إن الجد عبداللطيف ومهما كان عليه من علامات استفهام، هو شقيق الجد وما يمسه يمسنا.

وكأنها وصلت إلى حل..

فلا مانع من أن تُحكى الحكاية لكن من ورائها، تضع قدميها فى المداس وتهب واقفة وهي تقول:

- وكت هنسى، اللـه يخزيك يا شيطان!

ويتظاهرن هن بالتمسك بها:

- على فين؟

تكون قد تحركت، تلتفت مشيرة بيدها:

- يدوبك عشر دقايق، وراجعة تاني.

وكأنها إشارة لهن بأن يبدأن، وتفهم زوجة العم هلال، تلحق بها وهي تقول:

- أنا كمان ورايا مصلحة.

لم يتبقَّ إلا الخادمات..

***

وتبدأ الحاجة فردوس:

- كنا ساكنين أنا وأم زكي في حارة واحدة، حارة الغباشي، البيت جنب البيت وزى ما انتوا عارفين هي الداية بتاعة الناحية، وكل شوية الناس تخبط عليها، في الليل قبل النهار، وياخدوها على الحمارة لحد الواحدة من دول ما ربنا يسهل لها ويجيها الفرج.

فيبدأن في التململ، ويقلن:

- كل دا عارفينه، خُشّي على المفيد.

- المفيد! أنا جاية آهه للمفيد، في ليلة الموكوس عبداللطيف، بس دا كان من زمان، من ييجي تلاتين وللا أربعين سنة.

وتضحك ضاربة صدرها بكفها:

- اللـه يجازي شيطانك يا عبداللطيف! قال إيه! طلعت في دماغه هو وصحابه، صحاب بعيد عنكم سَوّ وما عندهمش لا ذمة ولا دين، وخصوصاً اللي اسمه...

فيحاولن منعها من الاسترسال:

- عارفين صحابه كلهم والعمايل اللي كانوا بيعملوها، على طول كده قولي إيه اللي حصل.

- إيه اللي حصل، آه. عبداللطيف كان لسه شباب وعيشته كلها

غلط في غلط، يقوم تطلع في دماغه إنه يعمل نفسه واحدة ست خلاص هتولد، وفي عز الليل، يدوب قبل الفجر، يخبط على أم زكي هو وجدعين من صحابه، وإيه! واحد يعمل إنه جوزها والتاني أخوها.

وتتوقف قائلة باستياء:

- شوفوا ولاد الكلب، لا حيا ولا خشا!

فيشرن لها بأن تستمر في صلب الموضوع، وألا داعي للتعليق، فتشيح في وجوههن:

- خلاص خلاص، يعني بحكي حكاية الزير سالم!

وتستأنف:

- ولاد الكلب دول قالوا لأم زكي: يللا يللا الحالة مستعجلة وفي عرضك الحقينا، دا الطلق شغال من بدري والعيل خلاص، تقوم هي وبسلامة نية تقولهم: عايزنها تولد عندي، زي بعضه مفيش مانع، حالاً هسخن شوية ميَّه، يقوم هما قايلين لها: لا.لا. اكشفي عليها الأول وجسيها، والوسخ عبداللطيف رابط شوية هلاهيل على بطنه وسُرّته، وعمال يتوجع ويعمل العمايل اللي بتعملها النسوان!

ثم تكتم الحاجة فردوس الضحكة التي في فمها، وتميل عليهن مكملة بصوت خفيض:

- الدنيا كحل، يدوب لندة نمرة خمسة، ومفيش حد معاها، جوزها ميت وكل عيالها متجوزين وقاعدين بعيد، والولية سنها كبير ونظرها ضعيف، ويا عيني تمد إيديها وتلاقي...

- تلاقي إيه؟

فتسـحب الحاجة فردوس مداسـها من فوق الأرض، وتلوح به مهددة:

- اخرسي يا قليلة الأدب مِنك لها، قومي يا وسخة إنتي وهيه شوفوا الأشغال اللي وراكم.

يحاولن استرضاءها، حتى تقول:

- الوليـة يا حبة عيني هات يا صويت، وهو وصحابه يا فكيك، فضلت تصوت تصوت لحد مالحارة اتلمت عليها.

- وإنتى؟

- أنا طلعت من أول صوت، وبعنيه دول شـفتك يا عبداللطيف وإنت طالع من بيتها جري، ووراك الجدعين اللي كانوا معاك.

وترفع إصبعها في وجوههن مؤكدة:

- بس الشهادة للـه أبوه زعل، مرضيش بالغلط وكمان كان برضك العمدة وهتتمِسك عليه، على طول هو وأخوه حلّقوا على عبد اللطيف

وسففوه التراب، وعلشان الحكاية متكبرش راح لعيال أم زكي وجبر خاطرهم، كتب لهم قيراطين أرض بيع وشِرَا.

***

13

وترجع أمي إلى الحوش..

يفسحن لها، وأول ما تجلس معهن تسأل عن الجد عبداللطيف، فيقلن لها إنه لا يزال بالداخل.

- والدنيا عاملة إيه؟

- لحد دلوقتي لا عركة ولا زيطة، يدوب الحس مرة يعلا ومرة يِخف.

والحاجة فردوس تقلب كفيها، وكأنها تكلم نفسها:

- أنا عارفة إيه اللي جرالك يا عبداللطيف، دا انت أول ماتولدت كت زي الملاك!

وتستدير لأمي مؤكدة بيدها:

- أمي ذات نفسها حضرت ولادته وشافت بعنيها، ولحد ما شد حيله وراح مصر العيبة عمرها ما طلعت على لسانه.

ثم تخوض في سيرته:

- هو وأخوه نزلوا ورا بعض، عبداللطيف يا حسرة كان مفيش، قَدّ الضفدعة! ونزل حتى من غير أمه ما تحس بيه، وهي صرخة واحدة اللي طلعت منه، وبعدها هات يا نوم! بسم اللـه ما شاء اللـه، حضرة العمدة هو اللي...

وتتوقف..

ترنو بحذر نحو مسكن الجد، ثم ترجع إلينا قائلة بأنه هو الذي أربك النسوة اللائي كن حول أمه ساعة الولادة، لم يسلم نفسه لهن بسهولة، ضعف حجم أخيه ويقاوم الأيدى التي تسحبه، وعندما تَمكَّنَّ منه لم يتوقف عن الصياح.

تأملته النسوة آنذاك، وقلن لبعضهن البعض:

- يا ألطاف اللــه، كل دا كان في بطنها!

والتي تجفف عرقها، وتقول باستعجاب:

- أنا مشفتش كده، عيل قد البغل والتاني عصفورة!

***

وينقطع الحكي..

يلتفتن كلهن إلى سكن الجد، كأنهن سمعن صوتاً تلاه صياح الجد عبد اللطيف:

- إنت بتكرشني من بيتك، واللــه مانا طالع!

- اعقل يا عبداللطيف.

- أعقل ! هو أنا مجنون!

وألقى بعمامته على الأرض:

- وآدي العمة وآدي الشال، تحب أقلعلك ملط كمان!

ويعاود التهديد:

- تحب؟!

فتسري همهمة بين نسوة الحوش، واحدة من الخادمات همست في أذن جارتها قائلة:

- آه لو عملها، وطلع علينا عريان ملط!

والتي تستمع لا تستطيع السيطرة على نفسها، أخفت وجهها في منديل وانفجرت في الضحك، وأمي الكسوف على وجهها.

***

يعود الصوت من جديد، الجد هذه المرة يحايل أخاه:

- عيب! إختشي! البيوت لها حرمة يا عبداللطيف، دا انت حافض القرآن وامتحنت فيه.

- خلاص ريَّحني، وقوم ارمي عليها اليمين.

وينصح جدي:

- اللي زي دي متقعدش في بيتك، تروح تلم دودة من الغيطان وللا تكنس وتغسل في البيوت.

فتسأسئ الحاجة فردوس:

- إخص إخص يا عبداللطيف، دا حتى الغلط له حدود.

وأمي أيضاً لا يعجبها ما يقال:

- يا دي الخيبة! والولية أم إجلال سامعة كل الكلام ده.

ويعاود الجد عبداللطيف:

- عاجباك قوي، خلاص اقعد جنبها ومتوريش وشك للناس تاني، والعمدية كمان تتنازل عنها.

والجد يكاد ينفجر:

- أتنازل عنها لمين إن شاء الله؟!

- للي يصونها، واحد زي حالاتي.

- يا سلام!

ويصر الجد عبداللطيف:

- موافق وللا مش موافق؟

- إلا موافق، طبعاً موافق!

- خلاص ادخل البس العباية والطربوش، ويلا بينا على المركز تتنازل قدام المأمور.

لم يتحمل الجد أكثر من ذلك..

سمعنا حركة عنيفة، أعقبتها صيحة استغاثة. ورأينا الجد عبداللطيف يخرج مسرعًا من الباب الخشب، وإصابة بجبهته وأخرى بشفتيه، والجد وراءه بالخيزرانة، هبت النسوة واقفات على الفور، فشعر جدي بالحرج وتوقف عائداً، والجد عبداللطيف بأقصى سرعة إلى الباب الخارجي وهو يصيح:

- والله لروح النيابة وأبلغ فيك، وكمان هاخد معايا الورق القديم، وأقولهم على أرضي اللي إنت بـارك عليها من ساعــة أبونـا ما مات.

وقبل أن ينطلق هاربًا، مـال على الأرض كابشًا حفنة تراب ورماها في وجوهنا، وهو يزعق بأعلى ما فيه:

- آه يا ظَلَمة يا وكالين الحقوق!

لحقت به يومها..

لعلّي تأثرت بقلة حيلته وبالدماء التي تسيل من شفتيه، كان في حالة مزرية! وليس الجد عبداللطيف، الـذي دخـل علينا قبل قليل منفوخاً ويعصف بكل البيت..

خطواته أقرب للهرولة، ومن بيت إلى بيت حتى دلف إلى الشارع الذي يسكن فيه، ولما شعر بي توقف واستدار إليَّ، فتسمرت في

مكاني، خفت أن يعتدي عليَّ أو يفعل بي أي شيء من أشيائه المجنونة. لم يفعل الذي كنت أتصوره، ربَّت على كتفي بحنان وطلب مني العودة إلى البيت حتى لا يقلقوا عليَّ، غير أني مكثت وشعر هو بأني أواسيه، فاغتصب ضحكة كأنما يقول لي بها إنه لا شيء به، ورغم أنه ضحك إلا أني لمحت دمعة تطفر من عينيه..

ورجعت..

لا أنكر أن قلبي تحول قليلًا عن جدي، أعرف أن شقيقه استفزه واستفزنا كلنا، ومع ذلك لم أغفر له ما فعل! ظللت أيامًا لا أقترب منه بل وكنت أتحاشاه، أيامًا فقط ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه.

***

14

استتب البيت، بعد أن ذهب الجد عبداللطيف..

لم تشأ أمي التنبيه على الخادمات، بألا ينقلن شيئًا مما حدث إلى الخارج، لا جدوى من ذلك، فمهما قالت إن البيوت أسرار، وأن العيش والملح يقتضي كذا وكذا.. مهما قيل! سيستمعن لها بانتباه ويؤكدن على كلامها، وربما يحلفن لها بالله أو على أولادهن، لكن كل هذا لا معنى له، هراء وحلفانات كاذبة! تعودت منهن على ذلك، فليقلن! هو الشيخ عبداللطيف والبلدة كلها تعرفه.

صرفتهن إلى أشغالهن، وبقيت هي والحاجة فردوس..

وبدأن في الثرثرة..

لا أتذكر على وجه التحديد، من منهن التي كانت تمسك بناصية الحديث، ومن التي تستمع؟

واحدة تقول والثانية تكمل لها، وإن كان الانطباع الذي خرجت به، أن الحاجة فردوس هي الأدرَى بأرشيف العائلة.

قالا: إن الجد عبداللطيف بعد أن وُلِد وأصبح عمره سنة، لم يكن جسده ضئيلاً فقط بل وكان غلبانا، فلم يكن يضحك أو حتى يبكي إلا نادرًا، لا صنعة له إلا السكات وإن لفتوا نظره لشيء أو حتى زجروه، ليس له من وسيلة للتعبير غير الابتسام!

جدي هو الذي بانت مواهبه من أول يوم، نهش ورفس وإجرام، وأمه كان اللـه في عونها فطالما شكت منه، وبعد كل رضعة ترضعها له كانت تقوم منهارة! كان يرضع بجنون، ومن ثدي إلى ثدي كما لو أنه في حلبة سباق.

وما النتيجة؟

كان وبكل أسف يسحب كل الحليب من صدرها ولا يترك لأخيه سوى الفتات والعكارات الأخيرة، كلهن لاحظن ذلك وأن الأمر لو استمر على هذا النحو، حتماً سوف يضيع عبداللطيف!

وتوضح الحاجة فردوس هذه النقطة لأمي، بقولها: إنهن لم يجدن

حلًا سوى الاتفاق مع مرضعة تأتي للمساعدة. قلن: (هارون) يرضع من أمه وأمرها للـه، أما المسكين عبداللطيف فتأتي له هذه المرأة مرتين في اليوم.

مرضعة من المرضعات ذوات الصيت، وصدرها ما شاء اللـه (متروس) بالحليب، يفرشن لها الحصيرة وعليها جِرام تجلس عليه، ويأتين لها بعبداللطيف.

تسمي عليه وتمدده في حجرها كالقط الأليف، ويرضع هو بكل ذوق وأدب، وفي ذات الوقت كن يشغلن جدي بأي شيء، وإذا لاحظن أنه يرمق أخاه أو لعابه سال، كن يحاولن إلهاءه، أفضل حيلة كانت تنجح معه عندما كن يبللن أصابعهن بلحسة عسل ويمررنها على شفتيه.

وتستطرد الحاجة فردوس ضاحكة:

- هُمَّا تلت تيام، والست بطلت تيجي!

وتؤكد لأمي بلمسة إصبع في فخذها:

- آه والنبي تلت تيام، ويمكن حتى يومين!

ولها حق - مثلما تقول الحاجة فردوس - فلم يستطعن السيطرة على الجد، لا العسل أصبح له تأثير، ولا المساخيط واللعب اللاني كن يشغلنه بها جاءت بنتيجة، ولا حتى الشخط فيه أصبح يردعه.

يزحف على يديه وقدميه ويناول أخاه ضربة رأس، أو يجلس على مؤخرته ويبدأ في النهش فيه، ولا يجدن حلًا أمامهن إلا أن يضعنه محل أخيه، وساعتها لا يستطيع أحد إنزاله من حجر المرضعة، يظل يمص ثديها حتى تصاب بالإنهاك.

لم تتحمل..

كان (خُلقّها ضيقًا)، كما أن لها طفلًا في البيت ترضعه، ولو استمر الجد على هذا المنوال سوف يموت من الجوع!

وفـــي يومها الثالث عندنا أو ربما الثاني، حســـبما تقول الحاجة فـــردوس، رفعت جدي بهدوء من فوق صدرها ووضعته في حجر أقرب امرأة إلى جوارها، وهبت واقفة وهي تقول:

- السماح، مقدرش على كده!

وأقسمت ألا تطُبَّ بيتنا مرة ثانية، ولو حتى ضاعفن أجرها.

***

كنت أجلس أثناء كل هذا الحديث، بين أمي والحاجة فردوس..

وسمعتهما أيضًا تقولان: أنه بمجرد أن أصبح الجد عبداللطيف قادراً على حمل نفسه، قرر أبوه أن يهبه للأزهر.

ولا أعرف لماذا أدخلتني أمي فجأة في الحديث، ابتسمت وقالت

وهي تربت على ركبتي: جدك الكبير (يا علي) حسبها حسبة مصلحة! قال في نفسه وهو يفكر في عبداللطيف: عيل لا حول له ولا قوة، لا له حضور ولا جسد، وإن توكلنا على الله وأدخلناه الأزهر، الجبة والعمامة لا شك سوف تعطيانه مهابة.

ثم احتار في جدك (يا علي): هل يستبقيه للغيط والمحراث والشادوف، أم إلى مصر مع أخيه؟

قلَّبَ الأمر في صدره، وقال: العيال في مصر كلهم عفاريت، وقطعاً سوف يجعلون من عبداللطيف لعبة يلعبون بها! فليذهب معه أخوه، ليسانده ويذود عنه ساعة اللزوم.

وسافرا إلى مصر في رعاية خالة لهما فاتها قطار الزواج، سكنا في سيدنا الحسين وكل صباح الجد عبداللطيف إلى الأزهر، وجدي لمدرسة بالقرب من (بوابة المتولي) آخر شارع الغورية. مدرسة أهلية، فلم يقبلوا الجد بالمدارس الميري، كان شحطاً بل وحتى ناظر المدرسة الأهلية لم يقبل به في بادئ الأمر، لم يصدق أن عمره المكتوب في شهادة الميلاد هو عمره الصحيح، وكاد أن يتهم جدنا الكبير بالتزوير واللعب في أوراق رسمية! لكنها مرت، بالرّشا والضغوط حتى قبل به، وظل جدي بالمدرسة حتى نجح في الابتدائية بعد ثلاث مرات رسوب، ثم أعاده أبوه ليقف معه فى الأرض. الجد عبداللطيف، هو الذى استمر، شق طريقه حتى تخرج

من الأزهر وحصل على الشـــهادة من كلية (أصول الدين)، ثم عاد إلى البلدة بعدها.

وتضيف الحاجة فردوس:

- ومن ساعتها يا بنتي وهو متلقح في البلد، لا شغلة ولا مشغلة!

وأمي تحك رأسها وتذكّرها بشيء فات عليها:

- بس وعلى ما كنت باسمع، بيقولوا إنه اتعين في شبين الكوم، كان الفقي بتاع جامع الحكومة وهو اللي بيصلي بالناس.

فتصحح لها الحاجة فردوس:

- شبين إيه! دا هو شهر واحد وكرشوه.

وتستطرد:

- وبعد كده أبوه داخ علشان يشوف له شغلانة يشتغلها، كلم النايب بتاع الدايرة وقال له: عايزينه مدرس في المدرسة بتاعة البلد.

وتشير بيدها في الهواء:

- المدرسة اللي هنا بحري البلد، وقصده إيه من كده؟ إن عبداللطيف يبقـــى تحت عينه والناظر يعمل له خاطر، وعبداللطيف بســـلامته مينكـــرش زي ما اتكرش في شـــبين، قال للنايـــب: أي حاجة، إن شا اللـه حتى مدرس ألعاب!

وتلتقط أنفاسها:

- الراجل متأخرش، دلاه مدرس زي ما طلب أبوه، يقوم الخايب عبداللطيف ميرضاش وبعزم ما فيه ينطح ويقول: مدرس! يا صلاة النبي! آهو دا اللي ناقص، يبقى أبويا عمدة وجدى عمدة وأبقى حتة مدرس! والناظر بتاعي هلال أبو شادوف!

فتسألها أمي:

- أبو شادوف مين؟ الجماعة اللي بيصلحوا السواقي والطلنبات.

- أيوه هُمَّا.

وتستمر:

- أبوه طول باله وبالراحة كده، سأله: أمال عايز إيه؟ يقوم الموكوس يقول: أبقى ناظر! أبوه بعيد عنك لسانه وجعه ويقول له: ناظر حتة واحدة! يا بني قول كلام معقول، وهو مفيش على لسانه إلا يا ناظر يا بلاش!

***

والذي عرفته، ليس في هذه الجلسة وإنما بعدها، أن الجد عبداللطيف بعد أن رفض هذه الوظيفة اندمج في عالم الدراويش، أطلق لحيته ومن (حضرة) إلى مولد إلى حلقة ذكر، والله أعلم بالذي غيره بعدها. دخل في عالم (الصرمحة) والتفَّت حوله رفقة السوء، أما الجد فوقف في الأرض وبعد أن مات أبوه أصبح العمدة.

وكان ثمة سؤال يرد على خاطري بين الحين والحين، لماذا للجد كل هذه الأرض فضلاً عن المطحن ومناحل العسل، والجد عبداللطيف لا يملك سوى عشرة أفدنة؟ وحتى هذه الفدادين وضع جدي يده عليها، يزرعها ويقلعها كأنما هي ملكه الخاص!

وأسأل أمي، فتقول:

- عرقه وشقاه، وإن كان على العشر فدادين جدك هو اللي صح، ولو كان سابهم في إيده كان ولاد الحرام ضحكوا عليه وفرتكهم مفيش سنة.

وتضيف:

- الأرض لسه باسم الشيخ عبداللطيف، وبياخد إيجارها كل سنة، وفوقه حمارتين محملين قمح ودرة وكل اللي يحتاجه البيت، وإذا اتزنق مرة في فلوس برضه بيديله ومن برا الحساب.

- وهو راضي بكده؟

- مش عاجبه! عايز يستلم أرضه، وكل كام شهر يعمل لنا هنا غارة في البيت.

- وجدي؟

- بيطبطب عليه ويديله قرشين، وآهو بيسكت ويروح.

وتزداد حيرتي..

فأنا في صف الجد الذي يحمي أخاه من نفسه، عقلي لا يمانع، لكن قلبي يقف مترددًا.

وأسأل نفسي الآن، عن الثورات التي كان يثورها الجد عبداللطيف علينا في البيت، أهي لأنه لا حول له ولا قوة ولا يملك سوى هذه الخربشة، ليس له قدرة على مواجهة الجد فاكتفى بضربه في أجزائه الضعيفة فقط، أمَّ إجلال وباقي نسوة البيت!

***

15

كلما مر بي الزمن، أحتار في الجد عبداللطيف..

فهل هو فطحل من فطاحل الشيوخ مثلما يدعي، أم رجل خائب ويسوق (الهبالة على الشيطنة)، فساعات يكون هذا وساعات يكون ذاك!

يحفظ القرآن كما أُنزل وبأرقام الآيات وأسـماء السـور، وفي الشـرائع والأحكام يعرف أقوال الشـيوخ على المذاهب الأربعة، وإذا سـأله الناس عن أعقد مسـألة من مسائل المواريث، في دقيقة واحـدة يقول لهم حلها. ومع ذلك لم يكن يرونه في الجامع، سـوى يوم الجمعة فقط.

يسألونه: لماذا لا تصلي باقي الصلوات؟

فيقول: وما أدراكم يا بهائم! طبعاً أصليها.

- أين؟ في البيت؟

- في البيت أحيانـًا، وأحيانـًا في الكعبة الشريفة أو مسجد الرسول.

- في الكعبة ومسجد الرسول!!

- نعم. وأحج كل سنة وأنتم لا تشعرون!

يعرفون إنه لم يحج في حياته، أو حتى ترك البلدة من الأساس، وجهه في وجوههم كل يوم، فيسألونه: متى؟ في السر!

- في السر طبعاً يا أوباش، أذهب وأعود مع الريح!

يكتفون بذلك، يخشون الدخول معه في جدال، هم الخاسرون وقد يهيل عليهم التراب، أو يخلع لهم المداس مهدداً.

***

ويصل الكلام للجد..

في البداية كان يخجل، أخوه وكل عيبة يقولها تمسه هو الآخر. كان يستدعيه ويؤنبه والجد عبداللطيف مصمم على ما يقول، وأنه من أهل الخطوة وصنفٌ آخر غير الناس!

يقول له الجد: استحي يا عبداللطيف!

فيقول: استحي من ماذا! أستحي أم أشكر اللـه على الكرامة التي أكرمني بها.

ويحاول إقناع الجد: ألم تسمع بالهدهد الذي أرسله سيدنا سليمان ليتقصى أخبار ملكة سـبأ، أنا هذا الهدهد، وأطير في السماء مثلما يطير!

والجد يجيبه بأسى: هدهد! وتطير في السماء؟؟

كان النقاش بينهما يهلك الجد ويصيبه بنوبات قلبية خفيفة، ومرة لم يستطع السيطرة على نفسه، تهور وأمسك برقبته، كاد أن يخنقه، أفلتوه من يده بصعوبة. قال له شيوخ العائلة وقتها: ما هذا يا حضرة العمدة، أتود دخول السـجن وتكون فضيحتنا على كل لسـان! بلوة وابتلاك اللـه بها فتحمل، يكفي أنك خلعت عمامته ورميتها في الطين، هذا كفاية!

تغير الجد بعد هذه الواقعة، لم يعد يبالي به، وكلما جاءه كلام على هذه الشاكلة، إما أن يشيح بظهر يده رافضًا الاستماع، أو يقول بضيق: لا حول ولا قوة إلا باللـه!

اشـترى نفسه، ترك له مساحة يلهو فيها وهو وشأنه مع الناس، لم يعد يتدخل إلا في الأمور الشـديدة، فلا أنسى له أبدًا الإجراءات

الاستثنائية التي اتخذها معه، بعد الفعلة التي فعلها في الجامع وأحرجتنا أمام الناس.

وكان محقًا..

فالجامع له خطيب اسمه (الشيخ سيد)، وقد بدأ الرجل حياته خفيرًا من خفراء الجد، يرتدي طربوشًا من طرابيش الخفر ويعلق على كتفه بندقية. استشيخ بعدها واستقال من الوظيفة، فتح كُتَّاباً بجوار بيته، ولأنه يحظى بعطف الجد ورعايته، سلمه المنبر والخطابة في الجامع، غير أن الجد عبداللطيف اعترض وقال إنه جاهل وعبيط، والجاموسة تفهم أكثر منه!

لم يكترث الجد بكلامه، حسم الموقف لصالح الشيخ سيد، وقال لأخيه: لو كنت محترمًا وموزونًا يا عبداللطيف ولا ترتكب كل حماقة وأختها، لكنت أنت الآن شيخنا وخطيبنا، لكن الأمر لله! وهذا الذي تقول عنه إنه جاموسة، (رجل طيب) وكل الناس تحبه وتشكر فيه!

ويحذره: ومن الآن لا دخل لك به، وإن اعترضت طريقه أنا الذي سوف أردعك.

كان الشيخ سيد رجلاً طيبًا بالفعل، صحيح أن كل ثقافته محصورة في دفتر صغير اسمه دفتر الخطب المنبرية، وكتابين أو ثلاثة من

الكتب الصفراء، إلا أن الناس كانت مرتاحة له، وكل يوم جمعة تنتظره ليخطب خطبته من الدفتر الذي بيده، ونفس الشيء الجمعة التي بعدها، عمر طويل هو وهم على هذا الحال.

***

لا أتذكر على وجه التحديد، متى اتخذ الجد إجراءاته الاستثنائية ضد توأمه عبداللطيف..

بعد اليوم الذي جرى وراءه فيه بالخيزرانة على ما أظن، بعده بخمسة أو ستة أشهر تقريباً، وقد أقسم بالله يومها ليحبسه في غرفة السلاحليك أو يسلمه لمستشفى المجانين، لو اقترب ليس من المنبر فقط بل ومن الصفوف الأولى بالجامع! ألزمه بالصلاة في آخر صف ليسهل التصرف معه، وكلف رجلاً غشيمًا من أقاربنا بأن يلفعه فوق كتفه ويرميه في الخلاء، لو أخل بنظام الجامع وتحرش بالمصلين.

والجد معذور..

ففي هذا اليوم، صعد المؤذن وأذن للصلاة. لم يبقَ إلا أن يستعد الشيخ سيد ويصعد فوق المنبر، غير أن الجد عبداللطيف أوقفه، أتى مسرعًا من بين الصفوف وأشار له بإصبعه بأن يلزم مكانه. الرجل غلبان، أذعن على الفور وسحب نفسه وجلس، وتبختر هو صاعدًا

فوق درجات المنبر. حدث كل هذا في نصف دقيقة، وفوجئنا به كلنا وأولنا الجد جالساً في الهواء، ويقول لنا: السلام عليكم ورحمة الله!

الدقائق الأولى، كانت مقبولة..

ثم دخل بعدها في قصة سيدنا يوسف، وهيأ للمشهد الذي تواجد فيه مع امرأة العزيز..

إلى هنا أيضًا ولا مشـــكلة، صحيح أنه أفاض في وصف المكان الذي ضمهما معًا، الفراش والعطور والباب الذي غلقته امرأة العزيز، وجسدها الملفوف والثياب الشفافة التي كانت ترتديها. أفاض وأطال، لكن مع بعض الصبر والتســـامح والأخذ في الاعتبار أنه الشـــيخ عبداللطيف، يمكن تحمل ما قال والسكوت عنه.

لم ينفجر الموقف إلا بعد أن خرف في الكلام، أشياء خائبة أتى بها من دماغه ورماها فوق رؤوس المصلين. وكلها ساخنة، وأن سيدنا يوسف كذا وامرأة العزيز كذا وكذا.

ويعيد ويزيد ويغلط، كلام والعياذ باللـه لا أصل له ولا شيء منه في الدين، وإن قيل لا يقال في الجامع وعلى المنبر، على الفراش بين رجل وامرأة ربما، لا بين نبي من الأنبياء وامرأة أصبحت من الصالحين!

والجامع مذهول..

الناس شلتهم المفاجأة، وانكتمت ردود أفعالهم عدة دقائق. وانتهزها هو فرصة وشطح، وصوته عالٍ ويجلجل في الفضاء، غطى الشوارع التي حولنا، وجاءنا منها أناس كانوا يصلون في جوامع أخرى. عدلوا وجهتهم وأتوا إلينا من باب الدهشة والفضول، منهم من كان يطل علينا من الشبابيك، أو احتشد أمام باب الجامع يضرب كفًا بكف.

وأفاق الذين بالداخل..

من يستعيذ باللـه، ومن يسب، أو يهزأ بنا ويقول: هل هذه أخلاق أولاد الناس، كبار البلدة ومشايخها، هل هذا هو الدين عندهم؟! والذي وضع مداسه تحت إبطه وخرج، ومن هب واقفًا ولا يعرف ماذا يفعل، أيخرج أم يبقى أم ماذا بالضبط!

وأناس ينظرون للجد، فماذا هو فاعل في هذه المصيبة؟!

وهو كأنما سكبوا فوق رأسه جردل ماء، ويحذر أخاه من أسفل بأن يحترم نفسه، أن يهبط وإلا صعد له! ويقوم نصف قومة مشيحًا بخيزرانته في الهواء!

وتفركش الناس..

لولا الجد والشيخ سيد، الجد كلف اثنين من شباب العائلة بالصعود إليه والإتيان به من فوق، فأسرعا وعبطاه ونزلا به، وواحد منهما

رماه فوق كتفه وخرج من الجامع. أما الشيخ سيد، فصاح في الناس: الصلاة الصلاة يا عباد اللـه، وجمع الشمل مرة ثانية.

زفوا الجد عبداللطيف يومها وألقوا به أمام زوجته، والمسكينة لا تصدق أنه عمل هذه (العملة)، تهجمت عليه بغطاء حلة كان في يدها، ثم عرت رأسها وبأعلى ما فيها صاحت طالبة من اللـه، إما أن يأخذه أو يأخذها حتى ترتاح!

***

16

وجاءنا مرة في منتصف الليل..

كنت نائمًا وأيقظتني أمي، أحدق فيها كالتائه وهي تقول: إنه يجلس في الحوش، ويريدني أنا بالذات!

حاولت المماطلة والعودة للنوم من جديد، فدفعتني خفيفًا بيدها:

- عايزك يعني عايزك، وإحنا مش قده اعمل معروف.

لا يجيئنا أبدًا في هذا الوقت، زياراته دائمًا بالنهار وللجد وليس لي، لا مفر.. قمت مرغمًا، خفت أن يُحدِث ضجة في البيت لو لم أستجب له.

كان متقرفصًا أمام غرفة الخزين، عصاه مركونة إلى جواره ورأسه محنيٌّ وفي وضع النوم، وزوجة العم هلال على مسافة منه وتضع يدها علي خدها، والبيت تقريباً هس هس، كلهم ناموا.

لم يشعر بقدومي، وإرهاصات شخير تخرج من بين شفتيه. ومالت زوجة العم هلال على أمي تقول لها: إنه على هذا الحال منذ أن دخلت، شتمها شتمتين ثم (سكعْ) بعدها ونام. واستيقظ هو على صوتها، دار بعينيه بيننا حتى رآني:

- إنت جيت؟

وأخرج الساعة من سيالته، رفع غطاءها بظفره، وثلاث دقائق على الأقل حتى عرف الوقت:

- إتناشر. يدوب. متأخرناش.

أسأله بعبوس، عن أي شيء تأخرنا؟

لم يُجِب، أشار لي بأن أتبعه، ولما تلكأت أشاح بعصاه مهددًا:

- يللا قدامي.

***

كنت قد كبرت..

ازددت طولًا وعرضًا وسنة والتحق بالجامعة، وازداد هو ضآلة

وكرمشة عما قبل. لا يفرق كثيرًا عن أي مسخوط من المساخيط التى نراها، فالوجه هو وجهه العجوز الذي ألفناه، لكن الجسد انتهى، فلا شحم ولا لحم ولا عضل، كله ومن أوله لآخره يمكنك وضعه في قرطاس وحمله بيدك.

وصل للثمانين وأمثاله يمكثون في بيوتهم، لكنه كان شأنًا آخر، والبيت بالنسبة إليه لقضاء الحاجة فقط، الأكل، الحمام، وساعتان أو ثلاث ينامها آخر الليل. حتى هذه الساعات، تقول زوجته: إنه ينامها نوم القطط، يغفو دقيقة ويصحو دقيقتين. الشارع بيته الحقيقي ومحل إقامته، لف لف على رجليه أو قعود على المصاطب ومناكفة خلق اللـه.

المهم أننا أول ماغادرنا البيت، قلت له: إلى أين يا جد؟

- آهو نتمشى، إنت في المسامحة دلوقتي، يعني لا وراك مدرسة ولا عندك حاجة شغلاك.

وربَّت على كتفي بلطف، فلنت له.

أعرف أن عينيه بهما مشاكل، نظارته هي الأخرى مشروخة ولا تؤدي مهامها كما ينبغي، ونحن بالليل، خفت أن يتزحلق مني أو يتعثر في حفرة أو طوبة، فأمسكت بيده غير أنه سحبها مني بضيق، ولكزني بمرفقه:

- إنت فاكرني أعمى مبشفش!

مخاوفي فعلًا لم يكن لها أي معنى، كان متمكنًا من نفسه ويتقدمني أحيانًا بخطوة أو خطوتيـن. والشيء الذي لفت نظري، أن قدميه كما لو أنهما ليستا في حاجة لإرشادات من عينيه، فبنفسي رأيته يتفادى أي مطب أو حفرة أو دحديرة، وكأن رادارًا يوجهه الوجهة الصحيحة!

تطور من الداخل، وعوض نفسه عن بصره الذي كلّ وأصابته الشيخوخة. هرس سكك البلدة على مدار عمره الطويل، وخرائط خرائط مرصوصة في دماغه، لكل شارع أو حارة أو زقاق، المداخل والمخارج والانحناءات. وكان يحذرني من أكوام السباخ المركونة أمام البيوت ولا تُرى جيدًا في الظلمة، لولا تحذيراته لتعثرت فيها وتبهدلت أنا وحذائي وكل ما أرتديه.

الأشياء المتحركة هي فقط التي كانت تربكه، فمن غير المعقول أن تكون لها هي الأخرى بيانات في خرائطه، تبدو أمامه كالخيالات أو الظلال ويحتار فيها. يتوقف أمامها راجعاً برأسه إلى الوراء، ويظل يتحسسها بعصاه حتى يعرف ما هي؟ قد تكون قطة فتموء وتتحرك موسعة لنا الطريق، أو يكون بشراً مثلنا، وقبل أن يمد عصاه كان هذا القادم في مواجهتنا يسبقه قائلاً:

- مين؟ سيدنا الشيخ عبداللطيف!

فيرد عليه بلا اكتراث:

- أيوه يا خويا، سيدك الشيخ عبداللطيف!

ويتمتم بصوت خافت:

- سيدك وسيد أبوك!

وغالبًا ما نجد أمامنا كلابًا مُمدّدةً بعرض الطريق، كنت أنتبه وأحذره:

- حاسب. حاسب.

فيستخف بالتحذير:

- إنت قلبك خفيف كده ليه! دا كلب الواد شحاتة، أطيب كلب في الشارع ومَعزّته عندي أكتر من مَعزّة جدك!

أتجاوز عن غلطه في الجد، كأني لم أسمعه، وأقول له:

- بيت عم شحاته مش هنا، لسه قدام، دا بيت الشيخ ربيع ودي كلبته.

- ربيع مين يا غشيم! ربيع كلبته ماتت أول امبارح، رفستها حمارة، والمزغود ده - قاصدًا الكلب - ساعات ييجي يمدد هنا.

يعرف الكلاب بالواحد، هي الأخرى تعرفه، ورائحته تملأ أنوفها، كانت ترفع رأسها له وتحييه، ومنها من يتمسح في جلبابه ويخطو

وراءه خطوتين أو ثلاثًا، أو يهب واقفًا ويزوم، فيقول لي:

- بَعَد. بَعَد. دا كلب أبو شادوف! كلب شرَّاني وحكايته حكاية.

ويقف بي أسفل شباك أحد البيوت، ويحكي لي حكاية هذا الكلب البائس، الرذالة التي يتحملها من أبو شـــادوف، والعيشـــة الصعبة والإهانات التي يلقاها في بيته، حتى أصبح شـــخصية معقدة تعض الناس وتتحرش بهم.

وأنا أشـــعر بالحرج، فصوته عالٍ وقد يســـتيقظ أصحاب البيت ويســـمعونه، وفي ماذا نتكلم؟ في كلب أبي شادوف! ومتى؟ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل!

أحايله وأسحبه بهدوء، حتى نكمل جولتنا.

***

17

جُبنا البلدة ذهابًا وإيابًا، حتى تورمت أرجلنا..

أنا إلى جواره، وهو لا يدع شـيئًا إلا ويحشر أنفه فيه: حماران يتبادلان الركلات، أتحاشـاهما مبتعـدًا، ويهلل هو بعصاه محاولًا فض هذا الشـجار. الحماران لا عقل لهما ولا مسئولية، وليس في حسـاباتهما طبعًا أو يفرق معهما أنه الشـيخ عبد اللطيف أو حتى حضرة العمدة، يتقاتلان بغشـم وركلاتهما مرعبة، لولا يدي التي دفعته بعيدًا لكانا فرتكاه.

أسرعت إليه بعد أن هوى على الأرض وأرحته فوق مصطبة بالجوار، وهو ينهج وصدره يعلو ويهبط وسعلاته عنيفة مؤذية.

حسبت إنه على وشك غيبوبة أو لا قدر اللـه شيء أكبر، وطفقت أجفف العرق الطافح على وجهه، وأدفع الهواء لفتحاته التنفسية.

لا غيبوبة ولا شيء! أول ما هدأ والتقط أنفاسه هب واقفًا.

أقول له: لو ارتحت قليلًا.

لم يُجِب، وتقدمني ماشيًا.

***

البيوت التي كنا نمشي بينها تلك الليلة حالها كان مؤسفًا، أشبه بحال الغلابة والشحاذين، الجدران بطوب نيّئ باش بعضه من جراء المطر وندى الفجر، والأسقف بأفلاق نخيل تعلوه أكوام حطب ناشف لزوم الأفران والكوانين، وأقراص (جِلّة) مرصوصة فوق بعضها البعض وتستخدم هي الأخرى لنفس الغرض. ولا طلاء يغطي نافذة أو بابًا أو جدارًا، وإن كان فبخامات رديئة وصنعة لا تسر العين.

والجد عبداللطيف هو الآخر، لا يرحم من يسير معه أو يعطيه فرصة للتعبير عن نفسه، يثرثر بلا انقطاع، لسانه لم يدخل فمه منذ أن خرجنا، وكل دقيقة ينغزني بإصبعه لأركز معه وأنتبه لما يقول، مثلما يفعل الصغار مع من يكبرونهم.

ويسخر من زوجته، مقلداً طريقتها في الكلام وغمزة عينها الشمال التي تحدث رغماً عنها، ومن جاره (أبو السعد) الذي يكح يومياً وهو

خارج لصلاة الفجر. ويصل للجد، لا يرحمه هو الآخر، لا يكف عن التهكم عليه وعلى شاربه وعصاه الآبنوس التي يضعها تحت إبطه ويمشي منفوخاً كأنه أبو زيد الهِلالي! وأنا أشعر بالضيق، لا أحب ذلك، لا أريد أن يتجاسر أحدٌ على الجد حتى ولو كان أخاه، ورغم هذا كنت أفشل في منع نفسي من الابتسام، وكأني أشاهد نجيب الريحاني أمامي أو علي الكسار.

***

ونمر أمام أحد البيوت..

بيت بأحجار الدبـش الكبيـرة، وقامته عالية قياسًا على البيوت التي حولنا، أول بيت محترم نلقاه أمامنا، صحيح أن الزمن جرى عليه، لكنه أصيل وآثار العز لا تزال بادية، وعلى جبهته فانوس كبير يضيء ربع الشارع. يتجاوزه الجد عبداللطيف بلا اكتراث أو كلمة واحدة، وهو الذي كان يرغي قبل قليل ويشغل رأسي بتفاهات، أقول له:

- بيت الحاج عمارة.

لم يرد، رغم أن الكلمة دخلت أذنه وسمعها جيدًا، فأعاود من جديد:

- يا سلام على الحاج عمارة، كان راجل محترم ومَلْو هدومه.

- يعني.

يقولها بضجر ويخوض فيه قليلًا ثم يسكت، لا أعلق، فأنا أعرف أنه لا يميل إليه، فحضرة الجد عبداللطيف في شبابه الأول، كان مغرماً بابنته ويريد الزواج منها، لكن الحاج عمارة لم يكن مقتنعًا به، ومعه حق، فسيرته كانت بطالة، خصوصًا بعد الفعلة القديمة التي فعلها مع زكية الداية.

رده بلطف واعتذر بأدب لوالـده (جدنا الكبيـر)، غير أن الجد عبداللطيف كان متيمًا بالفتاة، وظن أنها تبادله نفس المشاعر، وظن أيضاً أن الغرام الذي بينهما يفوق الغرام الذي كان بين روميو وجولييت أو قيس وليلى. امتلأ رأسه بهذه الخزعبلات، مما كان يقرؤه في الروايات التي كان يشتريها من فوق سور الأزبكية أثناء إقامته بمصر، وطفق يتسكع أمام بيت الحاج عمارة، وفي خياله أن الغندورة حبيبته تقبع وراء النوافذ وتنتظر. وعندما علم الحاج بما يفعله هذا الصعلوك هجم عليه، لم يبذل جهدًا يذكر، التقطه من قبّة الجلباب كمن يلتقط حشرة بأطراف أصابعه، ورماه في حجر أبيه، (سفخه) جدنا يومها كفًا كوَّمه على الأرض.

لعله يتذكر الآن هذه الأحداث مثلما أتذكرها أنا، فقد تجهم مرة واحدة واتكأ على عصاه متحسسًا الطريق بصمت، وكلما قلت له كلمة أجابني بفتور أو أشار لي بأن أسكت.

اكيد تذكر الصفعة التي نالها، وما ورد على ألسنة النسوة أيامها، بأن الحاج عمارة أمسك برقبة ابنته وكاد أن يقتلها، والمسكينة تبكي وتقول له بأنها لم تسمع في حياتها كلمة طيبة عن هذا الإنسان، واستحالة أن تفكر فيه، تفكر في مَنْ؟ في عبداللطيف خيال المآتة وعرة البلدة! كل ما في الأمر أنها رأته عَرَضًا في أحد الأفراح، وهي وصاحباتها تغامزن عليه وأجمعن كلهن على أنه يشبه العرسة أو قرموط من قراميط السمك! وحظها أسود هذه التي سوف تكون يومًا شريكة حياته.

***

ويمضي الوقت ونحن بلا كلام، إلى أن سمعنا دفقة سعال..

ويبدو أن الجد عبداللطيف تجاوز قصة الحاج عمارة والغرام القديم، فقد تلفَّت حوله متتبعًا مصدر السعال، وهز رأسه ساخرًا:

- السلكاوي. حضرته بيكح!

ويلوح بعصاه نحو شباكه:

- ابن كلب! الحشيش قاطع نَفَسه.

ويحكي لي قصة هذا السلكاوي منذ أن ولدته أمه، خصوصًا فترة شبابه وإجرامه القديم، عندما كان يقفز على الزرائب ويخطف الأشياء الخفيفة، المعيز والجديان الصغيرة بالذات. كان مبتدئًا في

هذا الوقت - على حد قول الجد عبداللطيف - وليست له طاقة على سرقة البقر والجاموس والأوزان الثقيلة، فهذه أشياء يلزمها أناس محترفون لا هلفوت كالسلكاوي.

يلفع المعزة أو الجدي وطيران إلى عشة بذيل البلدة، كان يعيش فيها آنذاك هو وعائلته الكريمة. وأبوه صاحب القرار، فإما أن يشرع بالسكين ويقول: بسم اللـه. اللـه أكبر. وحالًا حالًا تضع أمه الحلة فوق النار ومعها البصلة والملح والثوم، ويأكلون وينبسطون، أو يؤجل أبوه الذبح ويدع هذا الخير الذي أتى به السلكاوي لوقت لاحق، وإن تشكك فيه أحدٌ فيما بعد، كان يحلف له على المصحف وفوقه عشرين طلاقًا بأنه يخصه واشتراه من السوق.

ويكمل الجد عبداللطيف بانفعال:

- أوساخ! لا ذمة ولا دين، ولا يعرفوا حلال من حرام.

نحن تقريباً على بعد أمتار من بيت السلكاوي، أهمس له بأن يخفض من صوته أو نتحركَ من هنا على الأقل حتى لا يسمعنا الرجل:

- ما يسمع! دي شهادة حق.

لو استمر الجد عبداللطيف على هذا الحال سوف يورطنا في مشكلة، كما أن قواي خارت من كثرة المشي، أقول له: فلنرجع، تأخرنا.

يقلْب كفه مندهشًا: تأخرنا! تأخرنا عن ماذا؟ وأنا ألعن هذه الليلة التي لا تريد أن تفوت!

لم أستطع التحمل أكثر من ذلك، تحججت بأني أعاني من الإسهال وتركته عائدًا إلى البيت.

***

18

أناس كالجد عبداللطيف، لن يغيبوا أبدًا عن الذاكرة..

ليسوا هم فقط، أشياء أخرى، وربما صغيرة ولا معنى لها عند الآخرين، إلا أنها تعني لي الكثير: نبرة صوت رحل صاحبها، نظرة عاتبة، كلمة آلمتني وقتها ولا تزال، حتى الباب الخشب الذي كان يفصل بيننا وبين سكن الجد، لا يزال باقياً بصريره المتألم المستغيث!

وكأن هذا الصرير يرد على سمعي الآن، والجد يخرج علينا، شال خفيف يحيط بمنكبيه، ويمضي بخطوات عجولة نحو الباب الخارجي.

ينتظرونه بالدوار..

الدوار والبيت كتلة واحدة، يفصلهما فقط حائط من الدبش، يمشي نحوه وأنا خلفه كعادتي. الدكك مليئة بالرجال، يقفون له ويمر هو عليهم مُسلّماً، ثم يجلس فوق الدكة التي في الصدارة، دكته الخصوصية ولا يجلس عليها سواه، الوحيدة التي تعلوها فرشة من الصوف ومساند يتكئ عليها لو أراد.

كل القعود شيوخ من العائلات الكبيرة والعزب التي حولنا، أغلبهم لا يفهم إلا في الفلاحة والري وأسعار المحاصيل، ثلاثة أو أربعة على الأكثر تعلموا بالأزهر أو المدارس، ولهم دراية بالسياسة مما يقرؤونه في الصحف أو يسمعونه في نشرات الأخبار. والجلسة على ما يبدو جلسة طارئة، فالانتخابات على الأبواب.

البلدة كلها تصوت لحزب الوفد، من قديم وهي على هذه الحال، كما أن صورة (سعد زغلول) نفسها معلقة على أحد الجدران، هي وصورة (النحاس) وإن كان نصف الجلوس على الأقل لا يعرفون هذا من ذاك، ومنهم من يظن أنهما أقرباء لنا يسكنون في مصر! والمشكلة الآن، أن أحد رجال حزب (الأحرار الدستوريين) له عزبة في زمام البلدة، ويريد الترشح هذه الدورة عندنا. الناس تثني عليه، بنى لهم جامعًا ويعودهم في المآتم والأفراح، مرشح الوفد رأوه مرة أو مرتين فقط وليست له بصمة مؤثرة، لكن الجد إلى جانبه.

أشار البعض بأن نقسم البلدة نصفين، نصفًا للوفد ونصفًا للأحرار الدستوريين، غير أن الجد لم يقتنع، قال البلدة بها ستة آلاف صوت كلها للوفد، لكن ذرًا للرماد في العيون وإكرامًا لأولادنا الذين يعملون في عزبة مرشح الأحرار نعطيه بعضها.

الكثرة قبلت هـذا الكلام، والبعض على مضض أو أضمر في نفسه وخالف.

***

وجلسات صلح حامية، كنت ألازمه فيها..

حلفانات تُراق في الهواء، من يحلف بالله أو على زوجته وأولاده، حلفانات وأيمانات غليظة بعضها صادق وبعضها كذب في كذب! وخشونة وزعيق، واتهامات يكيلونها لبعضهم البعض.

يدعهم الجد حتى يُخرجوا كل ما في بطونهم من غضب وسلبيات، ويتدخل بعدها، فهذه كانت خطته! يطرق بشدة فوق الطاولة التي أمامه، ويبدأ. يعرفون أنه يقول الحق، وإن تمادى أحد منهم في الباطل سوف يصبح خَصْماً له، فقد يُنسى الخلاف الأساسي ويصير الخلاف بينه وبين الجد. لم تكن تغيب عنهم هذه النقطة، ويخشون غضبه، ويعلو صوته هو مرة ويخفت مرة، ويرق ويشتد، ويأخذ هذا في جلسة جانبية، ويطيّب خاطر آخر، كما لو أننا في عمل مسرحي وهو مخرج العرض أو بطله الأول!

يقدم بعدها الطعام..

طبالي طبالي تُرص بطول وعرض (المندرة) الكبيرة، وقهوة وشاي وسجائر توزع بلا حساب، وكل هذا من بيته ويخرجه عن طيب خاطر، غير أنه كان يحصل على المقابل، تزداد هيبته ومكانته في أعين الناس ولا يكسرون له كلمة يقولها.

مرة ونحن في جلسة من هذه الجلسات، فوجئنا بقدوم الجد عبداللطيف، رمقوه بتوجس، خافوا أن يفسد الجلسة، تشتت الجد هو الآخر، فعين على ما يجرى أمامه وعين على الجد عبداللطيف، كان يخشى من الفضائح والإحراجات.

الحمد للـه..

مرت بسلام، كذب الرجل ظنوننا، حالته المزاجية كانت عالية في هذا اليوم ولعب دورًا مؤثرًا في إتمام الصلح. تلا آيات من القرآن وذكر أحاديث وقصصًا من التراث لطفت الجو، بل وفي ذروة الجدال والمشاحنة قام مهلًلا بيده، وأقسم باللـه بأنه على استعداد لتحمل الخسارة التي لحقت بالشاكي من ماله الخاص، لو كان هذا سوف يحل المشكلة. وأنا أتابعه بذهول وكأني في حضرة (دكتور جيكل) المحترم الشهم، وليس (مستر هايد) الذي يفتعل المشاكل أينما حل.

***

بعد أن انفضت الجلسة، انتحى به الجد وأثنى عليه، وربت على كتفه قائلًا: ليتك يا عبداللطيف تكون هكذا دائمًا، محترمًا ومكانتك عالية.

لم يعلق، لكن عينيه كانتا تستخففان بهذا الذي يقال له، ولسان حاله يقول: من أنت يا جهول حتى تقيّمني! وأنا الذي عشت دهرًا مع البخاري والطبري وابن كثير وأكاد أضاهيهم، فقد كان يحسب نفسه محترمًا ومكانته في السماء، وليس في حاجة لتزكية من أحد.

وأشاح للجد بيده شارعًا في الانصراف، غير أن الجد والمشهود له بالنباهة والفراسة لم يلحظ ما الذي يدور في رأس أخيه، وظن أنه اقتنع، فحاول استمالته أكثر وأكثر، أخرج له رزمة نقود من جيبه، ومد يده له بها:

- إيه ده؟

- حاجة من أخ لأخيه.

فثار في وجهه:

- حاجة! إنت فاكرني شحات!

ودفع جدي بيده:

- أنا عايز أرضي اللي إنت شافطها في بطنك! والنهارده قبل بكره، وإلا هعملّك جلسة زي دي وأفرج عليك الناس.

فشخط فيه الجد:

- لا حول ولا قوة إلا باللـه! صحيح عمر ديل الكلب ما يتعدل ولو علقوا فيه قالب.

فالتفت إليه غاضباً من تشبيهه بذيل الكلب، إلا أن الجد لوح له بالخيزرانة فانصرف مسرعاً. وفي المساء جاءت إلينا زوجته، وأخذت رزمة النقود من جدي، فهل بإيعاز منه، أم سمعت بما حدث وجاءت من تلقاء نفسها؟

مسكين هذا الجد، فلولا عقله الخفيف لكان شيخًا من شيوخ الأزهر أو داعية من الدعاة الكبار، لا مسخة في أفواه الناس وحرفوشًا من حرافيش الشوارع!

***

19

ونسمع طرقًا على بابنا الخارجي..

لا أتذكر أي يوم بالضبط، السبت أم الأحد أم الخميس، ولا حتى الشهر، السنة هي التي أتذكرها سنة 1951، وعم عليش فراش المدرسة بيده الشهادة ويطالبنا بحلاوة النجاح.

عيناي على كلية الآداب، لكن الجد قال: الحقوق.

البيت كله وقف معي، وهو لا يلين. قاومت أيامًا ثم أذعنت، والغريب أن هذا الإذعان لم يخلق جفوة بيني وبينه، وكأني اقتنعت بما يقول، أو ربما تعلقي به شَوَّش عليّ.

وتقدمت لحقوق القاهـرة، غير أن المشكلة لم تكن هنا فقط، بل وأين أعيش في مصر؟

صحيح أننا كنا نتردد عليها كثيرًا، سيدنا الحسين بالذات، فالجد في صغره قضى شطرًا من حياته في هذا المكان، وإلى الآن يزوره ويبقى فيه باليومين والثلاثة. وكان يأخذنا معه أحيانًا، نأكل من يد (الحاج أمين) صاحب دكان البسبوسة بأول شارع الغورية، ونمر على دكان (البَنَّان) بالمغربلين، وخمسة أو ستة أكياس بُن على الأقل، وإلا (أبو هاشم) ملك الكفتة والكباب، كان هو الآخر طقسًا من الطقوس، وإذا جاء أحد منا ولم يأكل عنده مرة أو مرتين على الأقل، فكأن مشواره لم يكتمل!

ورغم كل هذا لم يَجُلْ بخاطري أني سوف أعيش في مصر بصفة دائمة، كانت فعلًا مشكلة..

***

الكلام المعقول أن يبحثوا لي عن شقة بالقرب من الكلية، هذا ما قاله أبي للجد غير أنه لم يتلقَّ منه جوابًا شافيًا، تمتم ببعض كلمات وأشاح بيده بما لا يفهم منه، إن كان: نعم أم لا.

وأصبح هذا الموضوع حديث الساعة، فالعم هلال مثلًا أشار علينا بالشارع الذي فيه (جنينة الحيوانات)، وعندما سألناه: لماذا هذا الشارع بالذات؟ لم يعرف الإجابة. واقترح العم سعيد منطقة

(بين السرايات)، مبررًا ذلك بأن كل أولاد البلدة الذين يتعلمون في مصر يسكنون هناك، حتى الحاجة فردوس تدخلت، قالت إن ابن أخت الشيخ (شعلان) المأذون تلميذ في كلية التجارة، ويسكن في حارة لا تدري أين! وأفضل حل أن أسكن معه، فالولد طيب مثلما تقول وسوف نرتاح مع بعضنا البعض. أما باقي الخادمات فكن يسمعن فقط ويؤيدن أي رأي يقال، لم يسهمن بأكثر من ذلك! ولأن الموضوع يخصني سألت وتقصيت وعرفت أن أنسب مكان هو ميدان الجيزة، خطوتان وأكون في الكلية، ونقلت هذا الرأي لأبي فربَّت على كتفي وقال لي بنبرة أشبه بنبرة التدليل:

- غالي والطلب رخيص، سيبك إنت من كل اللي بيقولوه، هو ميدان الجيزة مفيش غيره.

***

بسبب هذه الشقة، قمنا بمشوار كله مفاجآت، فالغلبان أبي كان غافلاً عما في رأس الجد، وظن أن له كلمة فيما يخصني!

كان هذا واضحاً عليه، أثناء ما كنا نرتب مستلزمات السفر، فالجد أصدر فرمانًا ليلة أمس بأن نستعد للسفر أول الصباح، أنا وأبي وأعمامي وهو أمامنا، قال: نبحث عن شقة لابننا (علي)، وننتهزها فرصة ونشم هواء مصر.

أمي ومن طلعة الشمس تضع أشـياءنا في حقيبة كبيرة، وأبي بالجلباب الكشمير وحذائه اللمّيع، ولا يكف عن إعطائها الوعود.

تقول له للمرة الخمسين:

- ميدان الجيزة يا حاج، اعمل معروف.

- يا سلام! طبعًا الميدان.

وتلح:

- الولد لسه صغير، وميعرفش سكك مصر.

يشير لها بألا تشغل بالها، فهذه مسألة محسومة.

وتعاود الحديث:

- وهتغيبوا كتير؟

- أسبوع. أسبوع دا إيه! يمكن أكتر كمان.

وسريعاً سريعاً يشرح لها:

- دا لسه هنروحوا الجيزة ونشوفوا لنا حتة نباتوا فيها، وخدي عندك بعدها يوم للسمسار الفلاني ويوم للسمسار العلاني، والمطرح ده ينفع والمطرح ده مينفعش.

ويشيح بيده إلى بعيد:

- ولسه. ولسه.

وعندما سمع أول دقة لبوق السيارة التي سوف تقلنا إلى مصر، خرج مسرعًا وأشار لي بأن أتبعه، وأمي وراءنا وتذكّره بصوتها الذي خنقه البكاء:

- الميدان يا حاج، سايقه عليك النبي.

والعَمَّان هلال وسعيد يتهامسان أمامنا ومعهما كرتونة وعدة لفف، وأحد أبناء الأعمام يلحق بهما ويذكر أباه بالخاتم أبو فص الذي وعده به، والجد من قبلنا بربع ساعة على الأقل في وسعاية الدوار، وبجواره القط بطربوشه الميري وبالطو جبردين.

بصوت مرتفع وحركات أشبه بالتهليل حيينا الجد كلنا، واتجهنا إلى الحقيبة الخلفية للسيارة نضع أغراضنا. وكان العم مرجان سائق السيارة قد غادرها وشرع في التدخين، أشار له الجد بأن يفرغ سريعًا من (الهبابة) التي في يده، ولأبي وأعمامي بألا وقت لهذه اللكاعة وأن يهموا بالركوب، وعندها مال أبي على العم هلال مستاءً:

- على إيه الهيصة دي كلها! ما كت خطفت أنا رجلي لحد الجيزة، وقوام قوام خلصت الموضوع.

لم يُجِب العم هلال، احتاط، رمق الجد أولًا فوجد عينيه عليه هو وأبي فسكت، وكان أبي قد دخل في الجملة الثانية:

- والقط بسلامته بيعمل إيه هنا هو راخر؟

فأجابه العم هلال بهمس، وهو يداري رأسه في باب حقيبة السيارة المرفوع:

- يمكن يكون رايح معانا هو كمان.

- رايح معانا! وهو المشوار ناقصه قطط.

والعم هلال يؤكد له:

- ضروري رايح، منتش شايفه لابس الجزمة والشراب.

فتذهب عينا أبي إلى أقدام القط:

- آه والله! دي الجزمة أم رقبة اللي بيروح بيها مصر.

وفجأة انكتمنا كلنا وتسمرت أقدامنا في الأرض، عندما رأينا الجد مقبلًا علينا، لم يعد باقيًا إلا أن ينطلق البروجي في السماء، ونؤدي له التحية العسكرية.

***

20

وانطلقت السيارة..

الجد في الأمام ونحن جميعًا في الخلف، لم يفكر أحد منا في الجلوس بجواره، رغم أن السيارة من سيارات زمان والدنيا براح بينه وبين السائق. لم ترد على أذهاننا بتاتًا. فمحاذاة الجد أو مشاركته المطرح الذي يجلس فيه، تصرف غير لائق في ثقافة العائلة. حتى أبي ابنه الأكبر والرجل الثاني في العائلة شأنه شأننا، غير أنه وللإنصاف حاول لفت نظر الجد إلى المعاناة التي سوف نعانيها في الخلف، فهي أريكة واحدة والقط وحده سوف يستحوذ على نصفها، فحبذا لو استبقيناه هنا، ثم ما هذا الطربوش الميري الذي يرتديه! جربان

وعدمان والقط يكبسه فوق رأسه كما لو أنه طاقية، وأكيد سوف يجذب عيال مصر حولنا، وربما...

لم ينتظر الجد ما تبقى لدى أبي من اعتراضات، رمق رأسه العاري وسأله عن طربوشه هو الآخر، أين هو؟ أليس من الأصول أن نضعه فوق رؤوسنا كلما ذهبنا في مشوار، أو كنا في مناسبة.

وأشار بضجر، إلى العمين هلال وسعيد:

- إنت هتعمل زيهم! واحد لابس صندل من أبو صباع، والتاني مش بس من غير طربوش، دا كمان فارق شعره من النص زي الحلاقين!

ثم غمغم بضيق وفتح بنفسه باب السيارة للقط، وبصوت أقرب للشخط:

- اركب اركب يا قط، بلا لعب عيال.

وصعدنا نحن وراءه بصمت، وتحرك العم مرجان.

***

ثلاث دقائق فقط، وتحولت السيارة إلى غرفة للنوم..

فهذه هي عادتهم كلما ركبوا شيئًا يتحرك، يبدءون بالتثاؤب وتغرب أعينهم ثم لا يقدرون بعدها. المشهد في الجزء الخلفي للسيارة كان

بائسًا، أبي والعمَّان هلال وسعيد ومعهما القط، دخلوا في سُبات أهل الكهف، وزَنّ وصفير وإرهاصات تنبئ عن أن صاحبها على وشك الشخير، ومن يسقط رأسه على كتف الثاني، أو يندمج في النوم ويتجاوز الحيز الذي يخصه، فيزيحه الآخر بمرفقه أو يده، يفعل ذلك وهو نائم وبردَّة فعل تقع منه دون أن يشعر.

والجد في الأمام يطالع جريدة المصري، وعندما فرغ منها أخذ يتسلى على العم مرجان، طفق يسأله عن أحوال البلدة والناس والدنيا وما فيها، ثم دخل به إلى حكاية الحاج (لملوم) الذي سرقت بهيمته، وسأله عما إذا كانت هذه الفعلة لا تخرج عن فلان أو فلان مثلما يقول الناس، هل يظن ذلك؟

الجد محنك وخبير، لا يسأل بغشم مثلما أقول الآن. يسحبه بمهارة وخطوة وبعدها الثانية، ليقع في الفخ وينطلق لسانه، وكأن الأمر جاء عفوًا ومجرد سهراية بين رفاق طريق. والعم مرجان في المنطقة الرمادية وحريص في إجاباته، وكلما تذاكَى عليه الجد يفلت منه، يذهب به لبعيد أو يدخله في سكك فرعية. الجد معذور، يُجري عملية استخباراتية للاطمئنان على الأحوال والرعية، والعم مرجان أيضًا معذور، لا يود أن ينطق بكلمة تحسب عليه.

والجماعة التي معي في الخلف لا تزال على حالها، حتى بعد أن دخلنا مصر وبدأ الضجيج والكلاكسات والدوشة. العم سعيد هو

أول من استيقظ، فرك عينيه وتطلع من النافذة غير مصدق، فوجهتنا مثلما يظن هو وبقية الفريق النائم هي الجيزة، نضع حقائبنا في إحدى اللوكاندات ونريح أقدامنا قليلاً ومن باكر يبدأ البحث، هكذا فهموا!

ولن أنسى أبدًا وجه أبي الذي اصفر واخضر وأخذ كل ألوان قوس قُزَح، عندما زغده العم سعيد في كتفه، وأبلغه بأننا في العتبة، وتركنا الجيزة من زمن!

وهو يسأسئ مخضوضًا:

- بتقول إيه؟ العتبة!

- أيوه العتبة! وآدي المطافي وآدي البريد.

فنظر أبي من النافذة، واستبد به الغضب:

- إيه ده! إيه ده! حاسب حاسب يا عم مرجان، إنت واخدنا ورايح على فين؟!

لم يكترث به العم مرجان، دلف في شارع الأزهر وكانت الطريق خالية فانطلق فيها.

فاستغاث أبي بالجد:

- يابا! يابا!

لم يلتفت له الجد هو الآخر، كان مشغولًا، أخرج من جيبه قبل

قليل نظارة القراءة وورقة مطوية وانهمك في مطالعتها، وأنا ومن الزحام الذي كنا فيه، كان نصفي العلوي مدفوعًا إلى الأمام وأقرب واحد فيهم إلى الورقة. كانت تهتز في يد الجد بفعل المطبات وحركة السيارة، فكنت ألمح كلماتها بالكاد، ألتقط كلمة وتضيع مني ثلاث، قرأتها بالكامل عندما توقفت السيارة عند الإشارة التي تفصل شارع الأزهر عن شارع الخليج: عقد إيجار شقة بالعقار رقم كذا بشارع الغورية، وكعلامة استرشاد مذكور أنها بالطابق الذي يعلو محلًا اسمه محل (الأمير) للملابس والمفروشات، واسم الجد في خانة المستأجر، واسم آخر في خانة المؤجر، أظنه الفرشوطي أو القرموطي، شيء من هذا القبيل.

وأبي على صرخة واحدة:

- يابا! يابا! يادي النهار اللي مش فايت.

وينظر لنا مشيحاً بيده:

- لا. لا. دا كتير.

ويسألنا: إلى أين نحن ذاهبون؟ أليس العزم والنية أن نتجه إلى الجيزة!

وطبعاً لا نجيب، فحالنا حاله، ويتنقل ببصره بيننا ويداه في كل الاتجاهات:

- لا إله إلا اللـه! لا. لا. مش هو دا اللي اتفقنا عليه!

فشخط فيه الجد من الأمام:

- خبر إيه، جيزة إيه وهباب إيه! (علي) هيجاور الحسين.

- حسين! حسين مين؟!

ورمقه العمان بنظـرة مشجعة، عندما تجـرأ على الجـد وأكمـل بنبرة خشنة:

- هو أنا هدخله الأزهر، دي كلية الحقوق، الحقوق! وبعدين وبصراحة كده دا ابني وأنا حر فيه.

وعم الصمت، واستدار إلينا الجد، يحدق فينا ونحدق فيه، وانهار أبي شعر بأنه لم يتجاوز الحـدود فقط، بل تـهـور ودخل في سكة مظلمة، فأردف مستعطفًا:

- مش أنا قلت لك يابا إن ميدان الجيزة أنسب مطرح، وإنت هزيت راسك وسكّت؟

وكأنه يكلم نفسه والجد في آنٍ:

- قلت لك واللـه! واللـه قلت! وكلنا عاملين حسابنا على كده.

وعندها مال العم هلال علي أبي منبهًا:

- أنا من ناحيتـي عامـل حسابي على الشارع اللي فيه جنينة الحيوانات، مش ميدان الجيزة.

فدفعه أبي بغضب:

- يا خويا سيبني في حالي إنت راخر!

***

21

لم يقاوم أبي أكثر من عشر دقائق..

كان قد تركني للجد منذ البداية، فهو الذي يختار لي المدارس ويبتاع لي الملابس، ويتابعني في الصغيرة والكبيرة. وطالما قال: الحسين، فهو الحسين ولو ضربنا رؤوسنا في الحائط!

المهم أننا غادرنا السيارة في هذا اليوم، عند أول الغورية. كانت التوقعات أنها سوف تتجه بنا إلى اللوكاندة التي اعتاد الجد المبيت فيها، وبعدها نعرف منه الخطوة التالية. لم يحدث شيءٌ من هذا، أمر السائق بالوقوف فنزلنا وراء بعضنا البعض، وقال هو للعم مرجان:

- خليك مطرحك، وقبل المغرب بإذن اللـه هتكون راجع.

والتفت لأبي:

- يلا يلا خدهم في إيدك، اللي عايز يصلي الضهر واللي ناوي يشتري حاجة لعياله، وعالفيشاوي بعد صلاة العصر.

وبسرعة وهو يتحرك:

- أنا ورايا مشوار صغير.

ويشير بإصبعه:

- هنا قريب.

فاستوقفه أبي:

- بس لو كنا...

لم يعطه الجد فرصة ليكمل بقية كلامه، أدار ظهره لنا مخترقًا شارع الغورية هو والقط، والعم سعيد وراءه بعينيه حتى اختفى ثم استدار لنا مؤكداً بسبابته:

- أحلف على مصحف إنه رايح عند الراجل بتاع البسبوسة.

ويكمل ضاحكاً:

- بيموت فيها يا ناس! إنتوا نسيتوا لما كان بينزل لها مخصوص من البلد أول ما تهِـفّ عليه.

فلكزه أبي كي يختشي..

***

عبرنا بعدها شارع الأزهر متجهين إلى الصاغة، وكل منا في دنياه. العم هلال يتوقع بقاءنا من ثلاثة إلى خمسة أيام، ويقول: السينما هي التي تلزمني من كل هذا المشوار، سأدخلها كل ليلة، ثم سألنا إن كنا نعرف أين يعرضون فيلم (لعبة الست)، فنظرنا له بدهشة. وقال العم سعيد: أما أنا فسوف أسهر الليلة بسيرك (أولاد عاكف).

ودرنا في الشوارع حتى صلاة العصر، ثم إلى (الفيشاوي) لنجد الجد في الانتظار، التقانا ببشاشة:

- أهلًا أهلًا بالرجالة، نورتوا مصر!

بالغ في ترحيبه بنا رغم أننا كنا معه قبل ساعات، وصفق بنفسه طالباً لنا الشاي وأخذ يتباسط على غير عادته، وأبي وأعمامي ينظرون لبعضهم البعض ومنهم من يرمقه بتوجس. تركنا نضرب أخماساً في أسداس، ثم قال وهو يشير بإصبعه نحوي:

- الواد ده مُبخَت.

ولحقه القط:

- إلا مبخت يا حضرة العمدة، دا مبخت ومبخت.

ثم توجه القط لأبي:

- دا يدوبك أول بيت ندخلوه يا سي الحاج، ونلاقي الشقة في وِشّنا.

وأبي الذي لا تزال في نفسه بعض الغضاضة من الجد:

- يا سلام! يعني كانت مستنياكم.

ويلتفت القط للجد:

- وخدت بالك يا حضرة العمدة من الصالة، دا الحصان يرمح فيها رمح!

ثم يعود لأبي:

- شقة مكنتش على البال يا سي الحاج، وقال إيه حضرة العمدة كان فاكر إننا هندوخوا السبع دوخات!

والجد يهز رأسه ويبتسم، وأبي الذي يكاد ينفجر يقول للقط:

- خلاص يا خويا، الحكاية باينه ومتتعبش نفسك.

وأخرج الجد من جيبه عقد الشقة وبسطه أمامنا، لم يكترث به أحد، أنا الذي قرأته وأقسم أنه العقد الذي رأيته مع الجد في سيارة العم مرجان، وعندما فرغت منه قال لي الجد:

- مبسوط؟

فأومأت برأسي، بأن: نعم.

- دي بس علشان الكلية، ولما تتخرج وتبقى قاضي هجبلك شقة جنب قصر عابدين.

وقال العم هلال بانزعاج:

- يعني الحكاية خلصت خلاص؟

فقال له الجد:

- تقريبًا كده.

- واللوكاندة؟ والشنط؟

لم يعلق الجد، هب واقفًا:

- يلا بينا على البلد، قبل الليل ما يدخل علينا.

ثم سأل أبي:

- اتغديتوا وللا لسه؟

فأجابه أبي بضيق:

- محدش له نفس.

- تحبوا تشوفوا الشقة؟

- وقت تاني.

وأول ما وصلنا إلى البيت، تساءلت أمي:

- خير! يعني رجعتوا على طول؟

وعندما أخبرتها أن الموضوع انتهى وكتبنا عقد الشقة، هللت:

- بركة بركة.

وسألتني بهمس:

- مش برضه الميدان؟

- أبداً. الحسين.

وأنا أنظر بعيني ناحية الجد، ففهمت وأسرعت قائلة:

- حسين حسين! هو حد يطول.

وطفقت تدعو للجد بطول العمر.

***

22

ويومًا بعد يوم ألفت شقة الغورية..

وكنت كل إجازة أعود فيها للبلدة أبدأ بالجد أولًا، غالبًا ما يكون في الدوار وحوله جمع من الناس، أول ما يراني قادمًا كانت الفرحة تبدو في عينيه، ولا يتحرك طبعًا من موضعه، يوقف الحديث الذي هو فيه ويتأملني حتى أدنو وأنحني مقبلًا يده.

مرات كان يخرج عن المألوف، يهب واقفًا ويخطو نحوي فاتحًا ذراعيه بين دهشة الذين معه، فلم يعد ينهض لأحد، وتقبل الناس منه ذلك احترامًا له من ناحية ولِسنّه التي تقدمت، فما إن يَجْتَز أحدٌ منهم عتبة الدوار ويلحظ أنه أصبح في مجال بصر الجد، حتى

يهلل بيديه:

- مطرحك يا حضرة العمدة.

ويصمم:

- واللـه مانت قايم، حلفتك بالرسول.

وإذا شـــرع في القيـــام أو حتى تظاهر بذلك، كان يســـرع إليه بارتباك:

- ليه بس يا حضرة العمدة.. ليه! ليه!

كلما احتفى بى هكذا وأحسست بالشوق في عينيه، كنت أسأل زوجته أم إجلال، فتقول:

- معذور. من ساعة انت ما سافرت وهو ملهوف عليك.

وتؤكد:

- وياريت على كده وبس! دا ساعات وهو نايم أسمع حسه وهو بينادي عليك.

فتنتابنى رعشة مما تقول، رعشة بالفعل وليس مجرد كلام أقوله الآن، وأحس بأن الحياة لن يكون لها طعمٌ ولا معنى بعد أن يموت. كنت أخاف عليه من الأشياء الثقيلة، مرض عُضال أو موت، وعليه هو بالذات وأكثر مما كنت أخاف على أمي وأبي.

لازمني هذا الإحساس طويلًا، خاصة عندما أكون بعيدًا عنه، كان يلحُّ عليَّ ويشغلني عن الشيء الذي في يدي، وربما أدخلني في دوامات ومتاهات ملغزة. فالطفل الذي يعيش بداخلي كان أقوى مني بمراحل، الطفل الذي ركله الموت وخطف منه جدته التى كانت تحكي له (الحواديت)، فإلى الآن وبعد كل هذه السنين، لا يزال يذكّرني بنبرة صوتها ورعشة الملعقة في يدها عندما كانت تطعم نفسها.

***

أما في المرات التي لا يكون فيها بالدوار، كنت أسرع إليه في البيت..

يكون متخففًا من ملابسه حينها، قميص طويل فوق السروال الداخلي وعلى رأسه طاقية البيت، وإلى جانبه كتب وجرائد ومجلات، مجلة (المصور) بالذات كان شغوفاً بها، خاصة المقال الذي يكتبه (فكري أباظة) كل أسبوع.

يلقاني ساعتها لقاء الأحباب، يضمني إليه ويطلب من زوجته بأن تأتينا بأي شيء نأكله أو نشربه.

ويبدأ في الأسئلة:

- مرتاح؟

أومئ برأسي، بأن كل شيء على ما يرام.

- وكلية الحقوق؟

- بس لو كنت سبتني أدخل الآداب.

- لا. لا. أنا عايزك تبقى قاضي، ولما تحكم بين الناس تحكم بالعدل.

ويعاود السؤال:

- معاك فلوس؟

أربّت على جيب البنطال بأنه عامر والحمد لله، ويصمم هو على إعطائي أي شيء، خمسة أو عشرة جنيهات. كان هذا المبلغ بالنسبة إليَّ ثروة في هذا الوقت، ويكفيني أسبوعًا بأكمله في مصر، أكل وشرب ومواصلات.

وينادي على أم إجلال:

- هاتى الصرة بتاعة علي.

ويقول لي:

- فيها ألف جنيه، وإذا الأجل لا قدَّر الله..

أوقفه، أستحلفه بالله ألا يكمل بقية العبارة.

وأداعبه بعدها، أذكّره بالمقلب الذي شربناه يوم أن أتينا للبحث عن شقة لي، فيضحك ضحكة طويلة على خيبة أعمامي وأبي، ويسألني:

- إنت فهمتها؟

- طبعًا ومن أول ما شفت العقد في إيدك وإحنا في العربية.

- آه يا مجرم! دا حتى أبوك مخدش باله إلا بعد ما رجعنا.

- وعمامي مافهموهاش هما كمان إلا بعدها بأسبوع.

فيبدو عليه الألم:

- أنا مش خايف إلا من عمامك دول، هما اللي هيخربوا البيت بعد ما أموت.

***

23

وبدأ فى التردد عليّ بشقة الغورية..

هو وحده الذي كان يزورني، فليس في الذاكرة أي وجود لأبي، ولا أظن أنه رأى هذه الشقة بعينيه.

كان يأتي مرة كل شهر ومعه القط، يبقى ثلاثة أو أربعة أيام ما بين الصاغة والغورية وأول شارعي الموسكي والأزهر، لم يكن يخرج عن هذا الحيز، أما السهرة ففي الفيشاوي.

لا زلت أتذكر جلساتنا في هذا المقهى..

والحاج فهمي الفيشاوي ذاته، فيشاوي هذا الوقت وصاحب المقهى

القديم، وإذا لاح يلوح في مشهد واحد، وهو جالس بجلبابه وطاقيته البيضاء فوق الدكة التي بمدخل المقهى. وإن كنت أشك في أن هذا كل حصيلتي منه، فعلى مدار أعوام وأنا أراه وأكيد شاهدته في أوضاع أخرى وكلمني وكلمته، لكن كل هذا بددته الذاكرة، محته تمامًا من سجلاتها، لم يعد باقيًا فيها الآن سوى هذا المشهد اليتيم. فهكذا الذاكرة، كما لو أن لها إرادة وتعمل بمعزل عنا، تستبقي ما تشاء وتلفظ ما تشاء دون تدخل منا.

المهم أن الفيشاوى كان يذكّرني أيامها، بمشايخ قريتنا الذين يقرءون القرآن في المآتم، فدكته أخت الدكك التي كانوا يجلسون عليها، وهو نفسه كان يتربع نفس التربيعة التي يتربعونها عندما يتأهبون للتلاوة، وكلما أراد إراحة ساقيه من هذه الجلسة الصعبة، إما أن يدليهما ويظل يحركهما يمينًا ويسارًا والألم بادٍ على وجهه من الخشونة التى بهما، أو ينهض ويتحرك خطوة أو خطوتين على الأكثر ثم يعود لحاله الأول.

يظل فوق الدكة من أول ما يصل حتى نهاية السهرة، فعلى أيامي كان طاعناً في السن، من عمر الجد وربما أكبر، وبين الحين والحين يغمض عينيه ويدخل في إغفاءات قصيرة، وكلما استيقظ يلتفت إلى الداخل، وبنظرة واحدة يكنس المكان كنساً، ويلمح الغلطة ولو كانت في آخر المقهى. ويصيح ساعتها على من أخطأ ويزغده في كتفه

بعصا صغيرة في حجره، ولا يغفل بعدها، يظل ساعة على الأقل يقظًا وعيناه على الحركة وهؤلاء العمال الملاعين الذين يلعبون من ورائه، بعد هذه الساعة لا يستطيع، يغفل من جديد.

***

نجم آخر كان يثير انتباهي..

رجل أعمى، أعمى بجدارة، عيناه مطموستان تمامًا، قدمه اليمنى هي الأخرى معطوبة، وفوق ذلك لم يهبه اللـه جسدًا ظريفًا، فلا هو قَزَمٌ ولا يدخل في عداد قصار القامة، ما بين هذا النوع وذاك مع سمنة مفرطة، أسمن إنسان رأيته في حياتي.

ثلاث دَوَاهٍ في بعضها البعض، ومع ذلك كان كتلة حركة، يروح ويجيء بيننا نحن رواد المقهى حاملًا رتلًا من الكتب ويحثنا على الشراء. وإذا لم يلحظ منا استجابة لم تكن تفتر همته ويغادر كغيره من الباعة، يؤنبنا، يعلو صوته علينا وبنبرة فيها شيء من العتاب، ينبهنا إلى أنه ليس شحاذاً يتسول! ولا بائعاً يحمل فوق رأسه مِشنَّة ترمس أو حمص أو حرنكش، بل أشياء مفيدة. ويعدد لنا أسماء الكتب التى يحملها ومن ألفوها، وأن هذا كله عبر ومواعظ وذاك فيه دين وعبادة، وكتب عن البرامكة وأخت الرشيد والحشاشين وصلاح الدين، سهر عليها (جورجي زيدان) ليالٍ طويلة وأخرجها لنا لنقرأ ونستفيد.

والعجيب أنه كان يحفظ تضاريس المقهى، وبمساعدات خفيفة كان يدخل ويخرج ويتم جولته بيننا كأي مبصر. غير أن الحلو لا يكمل، فإلى حد ما كان شرسًا في التعامل، لا يطيق الفصال ولا الأخذ والعطاء بقصد التسلية وليس الشراء.

في دورته هذه التي يدورها، ينادي عليه الجد فيأتينا بلا مشاكل، يسمع النداء ويعرف من أين صدر، كل ما في الأمر أنه كان يتحسس الطريق أمامه، وعندما يصل كنا نأخذ بيديه إلى أن يهبط ويضع كتبه في حجره. ويشرع الجد في مطالعة العناوين، كل اختياراته كتب في الدين والحياة، هذا للشيخ شلتوت وهذا لخالد محمد خالد وهذه (ماجدولين) للمنفلوطي. كان يفرط في الشراء قاصدًا مساعدته وليس الغرض القراءة، وساعة الحساب يعطيه بأكثر مما يطلب. ويلاحظ هو أن الجد سهلٌ وفلوسه كثيرة، فيحاول إغراءه بكتب من نوع آخر، ويبدأ بكتاب اسمه (رجوع الشيخ إلى صباه)، يتصفحه الجد ويعيده له باستياء، يقول له إنه اكتفى.

وكنت أسأل نفسي بعدها: كيف كان هذا الكفيف الأعجوبة يميز بين الكتب، ويعرف أن هذا لفلان والآخر لعلان، سألته مرة فقال: ببركة الحسين يا بني!

غير أني اكتشفت بعدها أنه ليس للحسين دخلٌ بالموضوع! فالكتب مرصوصة رصة يحفظها هو جيدًا، الأول كتاب كذا والثاني كذا

وكذلك الثالث والرابع حتى الأخير، وعندما نسأله عن أحد الكتب كان يعد بأصابعه ويسحبه لنا، ونفس الشيء عندما يعيده إلى مكانه.

***

هذا كل ما أتذكره عن الفيشاوي، وبعد ذلك الصور غائمة بعض الشيء..

المدخل وعلى اليسار صالة كبيرة ترتفع درجتين أو ثلاثًا عن مستوى الأرض، وممر طويل يفضي إلى جوف المقهى، وسيوف وتحف مقلدة عُلقت على الجدران، ومرآة مهولة حروفها مُذهَّبة ويصل ارتفاعها إلى ما قبل السقف بقليل.

ناهيك عن البشر، أبناء خمسينيات القرن الماضي: المطربش والمعمم، وصاحب الجُبَّة والكاكولة ومن يرتدون البذلات الإفرنجية أو الجلابيب والعباءات، والموسر والكادح، والتلميذ والأستاذ، ومن تطأ قدماه المقهى لأول مرة في حياته ومن يسهر هنا كل ليلة، ومجاذيب الحسين بثيابهم الغريبة، يبتسم لهم الحاج الفيشاوي كلما هلوا علينا، ثم يغضب ويهشهم بعيداً إذا شرعوا في التحرش واللكاعة.

ومن جاءوا للجلوس والسلطنة، أو انتحوا بعيداً يقرءون كتباً أتوا بهـا معهم، وحركة وأصوات تعلو وتنخفض، وأحاديث عن وزارة النحاس التي أقالوها، ومعركة الإسـماعيلية بين البوليس المصري

والإنجليز، وروائح القهوة والشـــاي الأخضر والحلبة والزنجبيل، وجمال وسحر لذيذ خاصة عندما تكون السهرة في أوجها.

***

ساعتان أو أكثر نقضيها ثم نغادر..

الجد في المقدمة، وأنا والقط نلهث وراءه، فرغم سِنّه التي تقدمت كان نشيطًا. يذهب بنا إلى الصاغة ليشترى حلقًا لزوجته، ثم إلى محل (أولاد منصور) بـأول شارع الغورية، ويتذكر الطربوش فيرجع بنا ثانية إلى الحاج أسامة عند (بيت القاضي) ليكويه له وبسائل شفاف ينظف له الزر. وبعدها إلى الأسطى درويش، كان سمينًا هو الآخر كبائع الكتب الكفيف، حجمه حجم فرس النهر وحتى له هيئته. يلقانا بابتسامة من فمه الواسع، وخمس دقائق على الأقل حتى يخلص قدميه المحشورتين أسفل ماكينة الخياطة وينهض لنا، فلم يكن ينهض دفعة واحدة مثلما ينهض الناس، على ثلاث دفعات وبكمية لا بأس بها من العرق، غير أنه كان بشوشًا وكلامه كله تهليل:

- يا خبر أبيض! حضرة العمدة وبشحمه ولحمه يا ناس.

وقبل أن يهم جدي بالكلام، يسبقه قائلًا:

- ولا حرف يا عمدة، العباية خالصة ومستنياك، إنت اللي مش سائل، لا جيت ولا حتى بَعَتّ القط.

ولا يدعنا إلا بعد أن نشرب الخروب...

***

ثلاثة أعوام ونحن على هذا الحال، لم ينقطع عني إلا آخر سنة لي في الكلية..

جاءني فيها مرة واحدة، جاء ورجع في نفس اليوم، وقد أقلقني حاله فكما لو أن الدنيا اسودت في عينيه. وجهه الصامت الشارد لا يزال ماثلًا أمامي عندما كنا نجلس على الفيشاوي، أراح مبسم الشيشة يومها وقال:

- أنا سبت العمدية.

وبصوت حزين:

- خلاص كبرت.

وعندما شرعت في الكلام، أشار لي بألا أقاطعه:

- أنا كان نفسي إن أبوك هو اللي يقعد مطرحي.

ويتأنى قليلاً ثم يقول:

- كنت راسمها على كده.

وكأنه يكلمني ويكلم نفسه في آنٍ:

- لا. لا. دا بس كلام، إنما لا احنا عايزين العمدية ولا حتى مشيخة البلد، خليهم يشبعوا بيها.

أحسست بأن كلامه ليس متساويًا، وكأن أشياءَ يكتمها بداخله، القط هو الذي أوضح الأمر:

- الحكاية مش كده يا سي علي.

فنظر الجد إليه نظرة تحذير، إلا أنه استمر:

- أصلهم عايزنها بالانتخاب.

ورنوت أنا إليه مستفسرًا، فاستطرد موضحًا:

- أيـوه، الجماعة بتوع الثورة شـالوا كل العمـد وقالوا لازم بالانتخاب.

وأضاف الجد ساخرًا:

- أي واللـه شرط واشترطوه، علشان تبقى عمدة الناس هي اللي تقول.

فقلت:

- انتخاب انتخاب! وإيه المانع، الوالد يترشح.

فنظر الجد إليَّ بدهشة:

- يترشح! دي تبقى عيبة في حقنا.

وبانفعال:

- طبعًا عيبة! يعني لو الواد السلكاوي بتاع الحشيش ولّا مرزوق

الأُجرِي وللا فلان وللا علان اللي ملهمش لزمة في الدنيا، عايزين يخشوا الانتخابات، يبقى أبوك يقف قصدهم.

ووراءه القط:

- أيوه يا سي علي، أمال إيه!

ويحاول إفهامي:

- إنـــت عايزنا نلفوا على البيوت ونقولوا للخلق: إوعوا تنســوا ولاد العمدة، بعد ما كان جدك بيشاور بالخرزانة الكل يجرى قدامه ويتكفًى.

ويكمل الجد:

- الانتخابات دي للناس اللى فاهمة وتعرف تحسب الأمور، وانت عارف الناس في بلدنا شكلها إيه.

ثم يطرق على الطاولة التي أمامه:

- انتخابات إيه! والعمد بالخصـــوص، العمد دول زي الملوك، عزوة وكلمة مسموعة أباً عن جد.

- يَعنى..

- أيوه! يفضلوا في مطارحهم لحد ما ينكسروا وتروح عزوتهم، وساعتها تيجي ناس تانية.

- بس..

- لا بس ولا حاجة، اصبر إنت وبكره تتفرج وتشوف.

فشعرت بأنه يخطط لشيء يسترد به كرامته..

***

24

وهذا الذي حدث، فلم يسلم الجد بسهولة..

قرر اللعب في الخفاء، انتظر حتى فتحوا باب الترشح، وأوعز لهلفوت من هلافيت العائلة بأن يتقدم.

قريب لنا اسمه (عويس)، من زمن وهو يعمل في أرضنا، كان "خولي" للأنفار يقف بخيزرانة في يده، ويروح ويجيء أمامنا كل يوم دون أن يشعر به أحد، فمرتبته في تسلسلنا الهرمي هي مرتبة الخفراء تقريبًا. ليسوا كلهم، فالحاج (مراد) مثلًا شيخ الخفر كان مهابًا ويخيفون به الصغار، حتى (القط) كان له وضعه سواء عند الجد أم بين الناس، أما هذا العويس ففي آخر الطابور وليس له أي ذكر.

زوجته أيضًا كنا نستدعيها في المناسبات أو عندما يكثر عندنا الضيوف، وقد رأيتها بدلاً من المرة عشرات وهي تجلس أمام الكوانين أو تحمل صواني الطعام فوق رأسها، بل وكانت نسوة البيت معدومات الضمير يستغللن وجودها ويلعبن بها، فبعد أن ينهدَّ حيلها لم يكُنَّ يدعنها ترحل في سلام، كن يكلفنها بكنس البيت أو يضعن أمامها أكوامًا من الحلل والأطباق المتسخة، وتشمر هي أكمامها حتى تنقطع أنفاسها.

***

اصطفى الجد قريبنا عويس من دون كبار العائلة، خاف أن تحلو العُمُدية في عيونهم، ويضيع منه الخفر والسلاحليك والعز والجاه، أراد شخصاً ضئيلاً يضعه في كبشة يده ويلهو به كيفما شاء. وحالاً حالاً استكمل له الأوراق، اضطر أن يسجل له خمسة أفدنة من أرضه ليستوفي (النِصاب) المطلوب، ولم يَفُت عليه بالطبع أن يأخذ عليه (ورقة ضد)، ويكتفه بالكمبيالات وإيصالات الأمانة، ثم شحنه في حراسة القط ليتقدم للترشيح.

كان هذا اليوم يومًا مُهمًا في حياة عويس..

ألبسوه جلبابًا من جلابيب أبي، وشالًا من الصوف من مخلفات الجد، وسحبوا خاتمًا بفص ياقوت من إصبع العم هلال ووضعوه في إصبعه. وساعة بأكملها وهم يدورون حوله ويهندسون له هيئة

لانقة، عمامة فوق الرأس، عصا صغيرة يضعها تحت إبطه، وشخط فيه الجد عندما رفض ارتداء (الشراب)، قال له: ما دمنا ألبسناك حذاءً فلابد من الجورب، أتريد أن تفضحنا!

ورغم كل ذلك لم يقتنعوا به في مركز الشرطة، عشر دقائق وهم يتأملونه وينظرون لبعضهم البعض، كانوا يعرفونه من قبل، فكثيرًا ما كانوا يحضرون للجد وطالما خدمهم عويس وقدم لهم الفطير والشاي وجلس تحت أرجلهم. فهموا، ونصحوه بأن يضع أوراقه في جيبه ويرجع إلى بيته، قالوا له بالصريح:

- العمدة القديم بيلعب لعبة كبيرة، وإنت اللي هتروح في الرجلين، فكر يابن الناس ومترميش نفسك في النار.

ويعاودون:

- العمدية عايزه واحد يشكم البلد ساعة الجد، وإنت لا مؤاخذة...

ولم يكملوا من باب الأدب، وهو مصمم ويجيبهم بالعبارة التي لقنها له الجد:

- أنا قدها وقدود، ولو عايزني أنيّم البلد من المغرب أنا مستعد.

ويؤازره القط بدهاء، مخاطبًا (البيه) المأمور:

- عويس راجل محترم يا سعادة الباشا، وربنا يخلي الباشا محمد نجيب وحضرة البكباشـي جمال اللي خلوا الغفيـر زيه زي أكبر كبير..

فشعر الرجل بالحرج أو ربما القلق، وقبل الأوراق..

***

هو وحده الذي تقدم..

أحجم الجميع، كل العائلات الكبيرة آثرت عدم الترشح أمامه إكرامًا للجد، فهموا أنه مجرد (أراجوز) والجد هو الذي يقف وراء الستار فلم يشاءوا إغضابه، ولعلهم قالوا فيما بينهم: العمدة القديم يصفي حساباته مع الحكومة، فما دخلنا نحن! فضلوا الوقوف على الحياد.

ولم يكن أمام المركز خيار آخـر، الديمقراطية في صف عويس، هو وحده الذي تقدم وفاز بالتزكية، وبين يوم وليلة صار العمدة. العمدة في دفاتر الحكومة فقط، فبنادق الخفر ظلت كما هي في غرفة السلاحليك الملحقة ببيتنا، التليفون الميري هو الآخر لم يتزحزح من موضعه، لا هو ولا دفتر الإشارات، ومراعاة للشكل ولوضعه أمام الناس أعفاه الجد من (المِرْواح) للغيط، ومتابعة الأنفار مثلما كان.

قال له:

- ارتاح في بيتك يا عويس، وزادك وزُوَّادك وشايك ودخانك

وكل اللي يلزمك هيجيلك وإنت قاعد مطرحك.

وأضاف وهو يقاوم الابتسامة التي لاحت على شفتيه:

- إنت بس تفضي نفسك للبلد، والهمة الهمة يا بطل.

وتفرغ عويس، غير أنه أثبت فشله من أول يوم..

لم يحترمه أحد، ومع النسوة بالذات كانت البهدلة، لم يملأ عيونهن وتطاولن عليه أثناء الشجارات التي تقع بينهن، لدرجة أن واحدة منهن استخفت به وشتمته بالأم والأب، ولما بادلها الشتائم هو وزوجته خلعت لهما المداس وهددتهما به!

وعندما وقعت مصيبة من المصائب الكبيرة، عراك بالشوم والفؤوس بين عائلتين بينهما خلافات ودم، استغاث بالجد وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها.

ربَّت على كتفه مشجعًا، وأشار له نحو غرفة السلاحليك:

- عادي. عادي. وياما شفنا حاجات زي دي، عندك الغفير زناتي قاعد جوه، خليه يبعت إشارة قوام.

فخطا خطوتين واستدار له:

- أقولُهم إيه؟

- تقولهم إنك محتاس، ويا تلحقوا البلد يا متلحقوهاش.

- وبعد كده؟

- على بيتك على طول، تمدد على المصطبة وتستنى القوة اللي جايه من المركز.

***

وانقلبت الدنيا..

بوكس شرطـة يسـتقله المأمـور وضابط المباحث، خلفه لوري محمل بالعساكر والمخبرين، والناس تدلهم على بيت العمدة الجديد. ومن شارع إلى حارة إلى زقاق حتى وجدوه (متصلطحًا) أمام الباب، وزوجته أمامها البابور وعدة الشاي، فشخط فيه المأمور:

- وكمان بتشرب شاي، إنت مش داري باللي حصل؟!

فهب واقفًا:

- مش داري إزاي يا جناب المأمور، دا أنا بنفسي اللي باعت لكم الإشارة.

وهو يلاحقه بالأسئلة:

- إيه اللي جرى بالظبط؟ وعندك إصابات؟ والشهود، فين الشهود؟

- آهم قعدوا يعجنــوا في بعض من الضهر لحد صلاة العصر، واللي شـلته الإسعاف واللي لســه متلقح في بيته، وسمعت إن فيه واحد مات.

- سمعت؟!

- آهي الناس بتقول.

والمأمور يغمغم بسخط:

- آه يابن الكلب يا عبيط.

ثم يسأله:

- وإنت عملت إيه؟

- عملت إيه! قعدت في داري وقفلت عليَّه بابي، دي عالم بتدبح في بعضها، عايزني آخد شومه وللا أنضرب بفاس، ترضهالي يا سعادة الباشا!

والمأمور يكاد ينفجر:

- أمال فين الغفر؟ كانوا فين ساعتها؟

- غفر! غفر مين! هو أنا حاكم عليهم، دول قلالات أدب وناقصين رباية، دا لسه واحد منهم شاتمني أول إمبارح.

ويحاول شرح ما حدث:

- وعلشان إيه يا باشا، علشان بس قلت له..

فيخرسه المأمور:

- وفين السلاح والسلاحليك؟ والتليفون فين ودفتر الإشارات؟

- يا سيدنا البيه أنا معنديش مطرح للحاجات دي، دا هو يدوبك قاعة ليَّه والقاعة التانية للعيال.

- كده! حسابنا بعدين يا عرة العمد.

ويدعه هو والركب الذي معه متجهًا إلى الجد، ويسأله بلين:

- حِلَّها إنت يا حضرة العمدة؟

- أنا لا عمدة ولا حاجة، أنا راجل على المعاش، عندكم العمدة عويس.

- يا عم الحاج دا احنا معرفة قديمة، وعارفين بعض من سنين.

وطفق يسترضيه..

***

25

لم يهنأ الجد بانتصاره على الحكومة..

ضربته أزمة قلبية، ولم أكن في البلدة يومها، كنت في مصر وعلى وشك البدء في اختبارات الترم الثاني للسنة الرابعة، وأول ما جاءني المرسال مسافة الطريق ورجعت.

لم أدخل إليه على الفور، وقفت بالباب..

ارتبكت، جفلت من النسوة اللائي يحلقن بالفراش الذي يرقد فيه. لم أرتح للهيئة التي كُنَّ عليها، أشعرتني بأنه ميت لا محالة.

نسوة كالغربان، ثيابهن سوذ، طرحهن سوذ، ومداساتهن الملقاة

بعتبة الباب لا لون لها سوى الأسود. وهمس. وإشارات يتبادلنها. والتي تضع يدها على خدها، أو تفتش في جيبها أو عبها عن منديل تجفف به دمعه تسيل. كن حزينات لا أنكر، غير أنه حزن باهت ليس فيه شجن ولا حرقة ولا ألم، ربما لأن ليس له ابنة بينهن، أو أنا ظالمٌ في حكمي عليهن، يجوز!

لا أتذكر كم كان عددهن، سبعة، ثمانية، تسعة، وكل واحدة منهن ملتصقة بجارتها، والوجوه وجوه نسوة كبيرات في السن، فأصغر واحدة فيهن تخطت الستين. والجلسة التي يجلسنها هي هي نفسها، التربيعة التي تعودن أن يتربعنها فوق الأرض وسواء أكُنَّ في حزن أو فرح، بَدَوْنَ وكأنهن مستنسخات من بعضهن البعض.

الأخت الكبيرة للجد كانت في المنتصف وهن حولها، ويقال أنها شاركت في إرضاعه هو والجد عبداللطيف..

لا أعرف كيف أتت من بيتها! عجوز بدرجة خرافية، كسرت المائة بمسافة، لا يمكن أن تكون أقل من ذلك. وإلى جوارها عجوز ثانية، ابنتها، وتعرفني وأعرفها، رمقتني ثم مالت على أمها تتوشوش معها. كانت تذكّرها باسمي ومن أكون، والأم في حال صعبة ووجهها بليد كوجوه الموتى، لا أظن أنها استوعبت شيئًا مما يقال لها، فلم تكن معها ولا معنا ولا مع أي إنسان في هذه الحياة، في ملكوت آخر ودنيا ثانية غير الدنيا التي كنا فيها.

النسوة الباقيات لم أتبين وجوههن..

ربما زوجة الجد عبداللطيف وامرأة ثانية، عمة، خالة، شيء من هذا القبيل. وكانت تضع طفلة في حجرها، حفيدتها على ما أظن، فاستحالة أن تنجب هذه الحيزبون أطفالًا وهي في هذه السن المتأخرة. والطفلة تُحدث صوتًا وحركة، وهي تحايلها كي تسكت، ومع ذلك أفلتت وطفقت تحبو جيئة وذهابًا وضحكاتها لا تنقطع. والجدة هذه مكسوفة وتلاحقها، والصغيرة لا تفهم وتحسب أنها تلاعبها وتزيد من سرعتها ومن الضحك!

أمي هي الوحيدة التي كانت تجلس على حافة السرير، تدلك أقدام الجد وهو تائه لا يشعر. المفروض والأصول أن زوجته أم إجلال هي التي تكون مكانها الآن، قطعًا أبعدتها ظنًا منها أنها أقرب إليه من هذه الإنسانة، التي يسمونها زوجته.

***

في نظرتي هذه، لم أتحقق من مجمل المشهد..

لا رأيت أم إجلال ولا المرأة التي كانت بجانبها، رأيتهما في النظرة الثانية، كانتا هناك في آخر الغرفة. المرأة بملابس فقيرة وطرحة غبية مربوطة فوق رأسها ربطة أشبه بربطة العمامة، خالتها التي أتت بها يوم أن زوجوها للجد، أما أم إجلال فكانت في حالة يُرثى لها، ووجهها كله خسارة وحسرة.

انتهت..

انتهت مثلما انتهى الجد، بقاؤها في البيت أصبح مرهونًا بما تبقى له من أنفاس، فليس لها ذرية منه وهو كل عزوتها.

المطرح مطرحها والفراش فراشها، لكن كل هذا مضى وكان، ولم تعد قادرة على رفع قشة من مكانها، وما إن يخرج النَّفَس الأخير تصبح غريبة عن جسد البيت وسرعان ما يلفظها، أو شأنها الضيوف لا تحصل إلا على ما يقدم لها وبعدها أرينا عرض الطريق.

***

أخيرًا دخلت..

وأول ما خطوت خطوة واحدة، رفعن كلهن رؤوسهن نحوي، ولاحظت أمي فأرادت شغلهن عني، أشارت بضيق نحو الطفلة التي تحبو طالبة إسكاتها، وأومأت لي بأن أدنو من الجد. وطفقت تنادى عليه بأن يصحو، أن يدع المرض ويقف على رجليه..

وتضيف والدموع تحاصرها: ها هو ابنك (علي) الذي تحبه ويحبك، ترك الدروس والمدرسة وجاءك في غمضة عين. اصْحَ يا سبع البلدة وعمدتها، ففرج الله قريب وشدة وتزول.

وكما لو أن هذه النبرة حركت فيه بعض الانتباه، أو هكذا أحسست، وازداد شغف النسوة لما سوف يجري بيننا. توارى حزنهن مؤقتًا،

وتوهجت فيهن غدد الترقب والفضول، وعندما جلست على السرير اشرأبت أعناقهن نحونا لأقصى درجة، غير أن رائحة الموت كانت أقوى، فيبدو أنه كان في النهايات فعلًا، تعطل نطقه أو يكاد ودخل في الشهقات والغمغمات الأخيرة.

غمغمات لا تصلنا بوضوح، أنصاف كلمات لا تدل على شيء أو فهمنا معانيها، الذي ميزناه فقط كلمة (هانم)، اسم جدتي التي ماتت وأنا صغير، الجدة التي كانت تحكي لنا (الحواديت) وأم كل هذه الذرية التي تملأ البيت. اسمها هو الكلمة الوحيدة التي خرجت منه، قالها مرات وسكت.

نادى عليها كما لو أنها موجودة معنا في الغرفة، سكرات وهلاوس، ربما! لكن الأمر بالنسبة إليه لم يكن كذلك، بدا وكأنه يراها بالفعل، أو في أدنى حد يشعر بها عن طريق آخر غير طريق البصر والعيون. وجهه كان يقول ذلك، كذلك غمغمات الاستغاثة وإشارات أصابعه التي تستحثها..

وأنا لا أعرف ما الذي أفعله، وحيال أمر لا أستطيع تحمل وقوعه أمامي، أما النسوة فكُنَّ في حال آخر. نداؤه على جدتي حرك فيهن القصص القديمة وشغل رؤوسهن بأحداث ومقارنات ليس الوقت وقتها، وبتلقائية أو بقصد التفتن إلى أم إجلال، والمسكينة لا حول لها ولا قوة.

لم يَطُل الأمــر أكثــر من ذلك، فأمي الأكثر دراية بمن هم في اللحظات الأخيرة، همست لي بأن أخرج الآن، لم تشأ بقائي لحظة خروج الروح..

***

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية:

- **لقمة العيش**: مجموعة قصصية. الطبعة الأولى، دار النسر الذهبي، سنة 1994. الطبعة الثانية، دار النيل، سنة 2005. الطبعة الثالثة، دار سفنكس، سنة 2011. وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامي 1997، 1998.
- **قلوب منهكة**: رواية. الطبعة الأولى، دار النيل، سنة 2004. الطبعة الثانية، دار سفنكس، سنة 2009. وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

كذلك صدرت لها ترجمة باللغة الألمانية من دار فيلتن (WELTEN)، سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude).

- **أيام الشتات**: رواية. الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2008. وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

- **أحلام العودة**: رواية. الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2012.
وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان:

(Menorahs and Minarets).

- **المليجي**: رواية. الطبعة الأولى، دار سفنكس، 2014.

ثانيًا: الأعمال القانونية:

- **السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي**، دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.
- **النظم السياسية والقانون الدستورى**، مطبوعات جامعية، سنة 2001.
- **القانون الإداري**، مطبوعات جامعية، سنة 2001.
- **المدخل للعلوم القانونية**، مطبوعات جامعية، سنة 2002.
- **الإدارة العامة**، مطبوعات جامعية، سنة 2002.
- **الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة**، مطبوعات جامعية، سنة 1995.

أيام لا تُنسى ١

"تتضح قدرة كمال رَحيّم في نسج خيوط الحدث في سرد واقعي متراتب ينداح من خلال وعي الشخصية بالموقف وفق الإطار التصويري الذي يكشف الدلالة الموضوعية للنص، والملمح الخاص للشخصية في نسق سردي للوعي والظاهر معاً".

محمد قطب

تقع أحداث هذه الرواية في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، عندما كان للحياة في الريف جمال وخصوصية وشكل مغاير لحياة اليوم، وكان للعُمد سطوة وكانت كلمتهم سيفاً على رقاب الناس. الراوي هنا حفيد أحد هؤلاء العُمد، ويقص ما كان يقع أمامه في هذا الزمن ويثير دهشته.. هالة التقديس التي أحاطت بجده العُمدة.. حكايات النسوة عنه وعما يقع في القرية من أحداث.. خلافات هذا الجد مع شقيقه (الشيخ عبد اللطيف) العالم الأزهري فالت الزمام.. إضافة إلى تجاسر العمدة على الحكومة وتحديه لها عندما أقصته عن العُمدية بعد ثورة 1952.. وصدمة الراوي ذاته وذهوله عند موت جدته وهو طفل صغير، ماتت أمام عينيه وهو لم يكن يعرف وقتها ما الموت، أو سمع بهذه الكلمة من قبل.

شخوص ونماذج بشرية تشغل الرواية: الأب السلبي المسالم، الأم قوية الشخصية، أعمام لئام يخططون للانقضاض على ميراث أبيهم وهو لا يزال على قيد الحياة، والمؤامرات والألاعيب التي تحاك من وراء ظهر الجد...

اللوحة لـ يوسف كامل، غلاف:

9 789774 905124

دار العين للنشر
Elain Publishing House